
يوسف السباعي
البحث عن جسد

البحث عن جسد

الإهداء

كانت فى سنين الطفولة الخوالى لا أكاد أنتهى من الدراسة فى نهاية الأسبوع حتى أعدو الى بيت جدتى أم أبى حاملا لها هديتى الدائمة .. كيسا من « دقة السمسم ونوى المشمش » أبتاعه من عطار فى شارع السد .

وفى إحدى الدور بنهاية شارع زين العابدين ، كانت تضطجع فى ركن من احدى الحجرات ، بجسدها الطويل النحيل ، وشعرها الأبيض الفضى ، مشلولة لا تستطيع الحراك .. فأرتمى بين أحضانها وأسلمها الهدية ، فتضمنى اليها وترقدنى بجوارها .. وتدللنى ، وتقص على أحسن القصص .

كنت أحبها .. وكنت أشعر أنها أول المحبين لى .. ومرت بنا السنون ، فرحلت عنا بعد أن ثكلت أبى .. وبين آونة وأخرى أشعر بالحنين اليها .. وأود لو أعدو اليها حاملا « كيس الدقة » .

أما وقد باتت الهدية المادية متعذرة .. فهل لها أن تتقبل منى هذا الكتاب هدية متواضعة .

الى أول من أحبنى .. وأولة من أحببت .. الى أبدع من قص .. وأعذب من روى :

الى « نينه أم طه » ...

« يوسف السباعى »

مقدمة

بينى وبين عزرائيل صداقة قديمة .. وحب غير مفقود .. ولقد قضيت فى صحبته فترة طويلة وأنا أعمل معه « نائب عزرائيل » وأهديته اليه عن طيب خاطر .. وأذكر أنى قلت له فى نهاية الاهداء :

« وانى يا سيدى فى انتظار اللقاء .. اما على صفحات كتاب آخر ، وإما فى السماء.. ما بى من خشية ولا رهبة ، فالحياة عندى والموت سواء » .

ويبدو أن اللقاء بيننا قد عز فى السماء .. وأنه ما زال فى عمرنا الشقى فسحة وبقية .. ولقد أوحشنى صاحبى فلم أجد بدا من أن القاه فى كتاب آخر .. فاستدعيته لأسامره وأحاوره .

وجرى بيننا حديث ذوى شجون .. عن الأرض والسماء .

وعن الشعوب والملوك والزعماء .

ولقد جرى الحديث بيننا سهلا غير متكلف ولست أدرى أأسميه قصة أم مسرحية أم مجرد حوار أخرجت به بعض ما يجول فى خاطرى .

ليكن ما يكون ؛ فلقد سبق أن قلت فى مقدمة أحد كتبى انى عندما أكتب .. أكتب متحررا من كل شىء حتى من قيود الهدف .. وانى أترك الأفكالا تنساب من ذهنى كما يتراءى له ولها فأريحه من حملها .. وأريحها من حصاره .

وهكذا لا أستطيع أن أسمى كتابى هذا سوى أفكار منسابة حاولت أن أضعها فى قصة .

ثمة شيء أود أن ألفت النظر اليه لأني أعتقد أنه ربما كان عاملا هاما في طريقة كتابتي لهذا الكتاب .. وهو أني كتبت الفصل الأول والثاني قبل ٢٣ يوليه ١٩٥٢ والفصل الثالث بعد هذا التاريخ .. ولقد قلت في آخر الفصل الثاني وأنا أكتبه في ٢٠ يوليه أن شيئا لابد أن يحدث .. وبعد ثلاثة أيام حدث الشيء .

ولم أكن أعرف وأنا أختم الفصل الثاني كيف أختم الكتاب وماذا أقول في الفصل الثالث .. ولكن الأيام التالية .. استطاعت أن تمنحني الخاتمة .. في يسر وسهولة .

وبعد .. اليكم الكتاب .. والى عزرائيل الشكر .. وما زلت أقول له ما قلت في الكتاب السابق :

« اني في انتظار اللقاء .. اما على صفحات كتاب ثالث .. أو في السماء » .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

« يوسف السباعي »

البحث
عن
جسد

الفصل الأول

(المنظر فى السماء أنا وعزرائيل فوق هام السحب بجوار كوم من الدفاتر والسجلات) .

عزرائيل يبدأ الحديث :

- قل .. ما رأيك ... ؟

- فى ماذا ... ؟

- فى العودة ... !

- أتتكلم جادا ... ؟

- بالطبع .. ومتى رأيتنى أهزل ... ؟

ما رأيتك الا هازلا . أتنكر أنك شيخ الهازلين ؟ أتنكر أن مجيئك بى ومحاولتك اعادتى هو فى ذاته مهزلة كبيرة .. ؟ فيم كان المجىء ، وفيم كان كل ذلك الجهد الذى تجشمته .. اذا كنت تريد العودة بى مرة أخرى ... ؟

- أنا لا أريد العودة بك .. انك مخير بين العودة أو البقاء .

– ولكن اذا كان بقائى وعودتى سواء .. بالنسبة لكم .... فلم كان حضورى اذن ؟ .

– كان حضورك ضروريا أول الأمر .. كان لابد أن آتى بك ... أما الآن ! ! فقد جد جديد .. يجعلنا نخيرك بين العودة والبقاء .

المسألة تستدعى التفكير فانها مسألة تقرير مصير .. ولا أظن الانسان يستطيع أن يقرر مصيره هكذا فى غمضة عين .. يجب أن تمهلنى حتى أوازن بين الأمرين .

– اننا فى عجلة .. ليس لدينا وقت .. فلابد لنا من العودة بمائة شخص . فنحن فى حاجة اليهم هناك . عندنا حالة عجز فى المستجدين .

– لا أفهم .. انك تتكلم بالألغاز .. ما هو هذا الطارىء الذى جد ... ؟ وماذا تعنى بحالة عجز فى المستجدين ؟ .

– أرجوك ... ليس لدى وقت لتفهيمك .. يجب أن أذهب الى غيرك .. قل .. أتمكث أم تعود ... ؟ .

– لن أقول حتى أفهم .. أفهم جيدا .. انى انسان غبى فيجب أن تفهمنى جيدا ، والا فلن أجيب ، وسأدعك وحدك تتحمل مسئولية عودتى أو بقائى .

– ماذا أفهمك .. ؟ قلت لك أن لدينا حالة عجز فى المستجدين .. فماذا أقول أكثر من ذلك ؟ .. ليس لدينا أنفار تكفى للعدد المطلوب من المستجدين . هل فهمت ؟ ؟ .

– لم أفهم ... ألم أقل لك انى غبى ؟ . أفصح أكثر من ذلك ! ! .

– ليس لدينا من الأرواح الجديدة ما يكفى للمواليد الجدد ... المطلوب انزالهم الى ظهر الأرض .. هل فهمت ؟ .

– آه .. قل هذا .. فهمت .. كان يجب أن تفصح من أول الأمر . كيف كنت أستطيع فهم تعبيراتك عن المسستجدين والأنفار ... ؟ .

– حمداً لله أنك فهمت .

– اذن فأنت تريد أن تكمل العجز من الأرواح « الرديف » ؟ تريد أن تكمل المستجدين من الأنفار المسرحين ؟ !

– تماما .. لقد فهمت ...

– اجل .. فهمت .. فهمت .. وتريد منى ، بذلك .. أن أعود مستجدا مرة أخرى ... بعد كل تلك الخدمة الطويلة والمهانة ... ؟ .

– أجل ... !

– لا ... لا ... لا أقبل .. ان كنت تريدنى أن أجدد مدة أخرى بشروط مناسبة فقد أقبل .. أما أن أعود مرة ثانية مستجدا .. فمستحيل .

– تجدد مدة أخرى ؟ أمجنون أنت ؟ .. كيف يمكن هذا ... ؟

– أنا المجنون ؟ .. الله يسامحك .. ماذا ترى فى قولى من الغرابة ... ؟ أغريب أن أعود لأواصل الحياة مرة أخرى .. ؟

– بأى جسد .. ؟

– جسدى ... !

– وبأى اسم ؟ وأية شخصية ؟

– إسمى وشخصيتى .

– جسدك .. واسمك .. وشخصيتك ؟ ! أى مجنون هذا الذى تتحدث به ؟ .. أين جسدك واسمك وشخصيتك ؟ أنسيت أنه لم يعد من جسدك سوى عظام نخرة لا تكاد تتماسك .. ؟ ... وأن اسمك قد أصبح على أحسن تقدير : « المرحوم فلان » ؟ أما شخصيتك فقد أضحت على حد قولهم : غير ذات موضوع ... فكيف تريد بعد كل هذا أن تواصل الحياة كما كنت ؟ .. أو كما تقول .. تجدد مدة أخرى ؟ ؟ لا .. لا .. لا تكن سخيفا .

– أنت وشأنك .. هذه هى الطريقة الوحيدة التى أقبل أن اعود معك بها .

– ولكن ...

– لا .. لكن .. لا فائدة من المناقشة .. ليست هناك قوة تستطيع أن تجبرنى على العودة معك وليدا جديدا .. !

– ولكن ماذا يضيرك ما دمت قد قبلت العودة .. ان تبدأ من جديد . أو تواصل حياتك الأولى ؟ .

– وعثاء السفر . ووعورة الطريق .. يضيرنى أن أبدأ الطريق من أوله .. انى – من أجلك – أستطيع أن أحتمل بقيته فذلك أمر يمكن احتماله بل هو الأمر الطبيعى الذى كنت قد هيأت نفسى له .. لو لم تنتزعنى من الحياة بتلك الطريقة المفاجئة .

– مفاجئة لك .. ولكنها مبينة عندنا .. مدرجة فى القائمة .

– ما علينا .. هذا أمر لا يهم . ما حدث قد حدث وما كان على سوى

القبول والاذعان .. المهم هو أن تفهم جيدا .. انى لا أقبل قط أن أركب ما ركبت من الصعاب مرة اخرى .. ولا أن أعود فأحمل نفسى بمحض ارادتى أثقال الشقاء وأكداس التعاسة .

- شقاء .. ! تعاسة .. ! يا لك من ناكر للجميل كافر بالنعمة .. (وأما بنعمة ربك فحدث) .

- من قال انى لم أحدث بنعمته .. وأحمده على مكروهه ، لقد حدثت بنعمته فأضاعها الحساد .. وحمدته على مكروهه فحق على قوله : (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، وهكذا زالت النعمة وزاد المكروه .. لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين .. أرجوك .. ابحث عن أبله غيرى ... يقبل أن يبدأ حياته من جديد ... ! .

- اذا كنت أنت لم تقبل . فكيف يقبل غيرك ... ؟ .

- أنا .. ؟ ! ومالى أنا ؟ . ماذا يميزنى من غيرى ، حتى أقبل .. ؟ .

- أيها الكافر الناكر ؟ تتحدث عن وعثاء السفر ووعورة الطريق ؟ طريقك المليء بالورود والمفروش بالرياحين ..أى صعاب ركبتها به .. وأى شقاء صادفته فيه .. أيها المحظوظ السعيد .. المنعم المرفه .. ؟ حقا . قتل الانسان ما أكفره .

- لا فائدة ، أرح نفسك ليقتل الانسان أو لا يقتل ، فما عاد لى به شأن . انى لم أعد بعد انسانا .. ولا أود قط أن أعود انسانا .. أنا محظوظ سعيد .. ؟ سامحك الله على فريتك .. دعنى وشأنى ، أرجوك .. محظوظ أم غير محظوظ ، انى لا أرغب فى الاعادة .. انتهينا .. انى لا أحب السعادة ولا الحظ ... أأنت شريكى ؟ ! أنا سعيد هكذا .. ؟ .

– انت وشأنك .. انى لم أضربك على يدك ، ولكن أتنكر أنك كنت مثلا لانسان سعيد .. ؟ أتنكر أن حياتك كانت مليئة بالهناء والنعيم ؟ .

– انى لا أنكر فى حياتى هناء ولا نعيما .

– تماما كالقطط .. تأكل وتنسى .

– لم آكل ولم أنس .

– تذكر جيدا ... ! .

– لا أتذكر سوى الشقاء والبلاء .

– سأريك أنك كذاب أشر !

– كيف .. ؟

– سأزن لك سعادتك فى الحياة وشقاءك .. وسترى أى الكفتين أرجح .. وهذا هو الميزان .. سأضع فيه ما صادفت من أشواك وما لقيت من أزهار .

– أزهار ؟ ! ! أزهار ؟ ! ستضيع وقتك فى البحث عنها عبثا ..

– سترى .

– هيا ... ابدأ الوزن .

– لن يكون قبل ان تعدنى وعدا .

– ما هو .. ؟

– أن تعود معى اذا رجحت كفة السعادة .

– أعدك بشرفى .

- لا داعى للقسم بشرفك . فهو شيء لا قيمة له هنا . !

- كيف ... ؟

- الشرف هناك له قيمة ! لأنه شيء نادر الوجود .. أما هنا فلا وجود له .. لأنه أمر طبيعى مفروغ منه .. لا قيمة للجمال بغير قبح .. ولا قيمة للشرف بغير قلة الشرف ! .

- مفهوم .. مفهوم .. دعنا نبدأ الوزن .. وكفى فلسفة .. ارفع الميزان فى يدك جيدا ، حتى أرى الكفتين متساويتين متوازيتين . أجل ... هكذا .. هات ما لديك من أزهار .. ودع الأشواك لى . فسأعرف كيف أغرق بها الكفة .

- اتفقنا .. أنا أضع الأزهار فى كفة ... وانت تضع الأشواك فى كفة .. حتى يفرغ كل ما لقيته فى حياتك من أزهار وأشواك .. ثم ننظر كيف تكون النتيجة .

- أجل لتبدأ أنت ... !

- هذه اول ازهار حياتك .. أزهار الطفولة الحلوة الناعمة ! اتذكر حياتك وقتذاك ... ؟ حياة المرح واللعب ، وخلو البال والتحرر من المسئوليات والأعباء .. كنت مخلوقا مرفها مدللا .. وهل نسيت جدتك « نينه أم طه » ونسيت تدليلها ورعايتها اياك ... ؟ والأقاصيص التى كانت تقضى الساعات الطوال فى قصها عليك . كنت وقتذاك « سوساه » المعزز المكرم . إنى لا أكاد أبصر فى حياتك وقتذاك سوى أزهار فوق أزهار .. أغلب ظنى أن كفة الميزان ستفيض بها . سأضع بعضا منها فقط خشية أن تهبط الكفة مرة واحدة ، ولا أجد ما يعادلها من الأشواك ! .

-- لا تخش شيئا ، ضع كل ما في جعبتك . ان الأشواك متوافرة .. لقد بارك الله فيها فتوالدت وكثرت .

. خذ اذن كل هذه الأزهار وهذه أيضا .. وهذه .. وهذه .. أرنا الآن ما لديك من أشواك .. فى تلك الحقبة من الحياة .. ألديك ما يعادل كل هذه الأزهار .. ؟

– لدى الكثير .. الكثير جدا .. ولكنني لن أتعب نفسى فى جمعها كاملة . سآخذ منها شوكة أو شوكتين ، أعادل بها كل أزهارك .. ان الأزهار لا تثقل كفة .. انها خفيفة كالقش .. انها ورق .. سريع الذبول سريع الجفاف .. يودى بها الزمن وتذروها هبة من الرياح ، أما الأشواك فهى باقية على الزمن .. لا تجف ولا تذبل .. بل تزيدها الأيام حدة . جرحها دام وقرحها مسموم .

– كفى ثرثرة .. وهات واحدة ان كنت صادقا .

– خذ ، هذه « توفيق أفندى » وهذه « ستى أم عطية » .

– توفيق أفندى .. وأم عطية ؟ ! ! لا أفهم ما تعنى ! !

– أيها المضلل . لم ذكرت « أم طه » ونسيت « أم عطية » لم ذكرت جدتى أم أبى ونسيت جدتى أم أمى ؟ لم ذكرت مدللتى ونسيت معذبتى . ؟ أنسيت كيف كانت تعتقد أنى حرمت أخى محمودا اللبن لأنى ولدت بعده بسنة .. فأخذتنى – وأنا رضيع – بجريرة حرمانه .. فأحبته وابغضتنى ، واعزته واذلتنى . كانت تقول « محمود » « بلا يوسف .. بلا يوسف » .. كانت تحمل لى فى قلبها – رحمها الله – حقدا دفينا .. وسلموا لها امرى ففرضت من نفسها (ديكتاتورا) على طفولتى .. وجعلت منها قطعة عذاب .. كنت أرى فى سفرها الى البلد عيدا ...

وفى عودتها وبلاء .. ضع هذه الشوكة فى الميزان أيها المخادع .

– ضلة لك .. ان قلبك اسود لا ينسى السيئة .

– لا لا .. هذه تهمة باطلة . أنت الذى أرغمتنى على أن أتذكر . ومع ذلك فقد غفرت لها .. وكنت أول من رعاها فى موتها .

– ما علينا .. هذه « ستك أم عطية » فى الميزان .. ماذا تريد بعد ذلك ... ؟ .

– توفيق افندى ...

– ومن يكون ؟ .

– مدرس الانجليزية فى مدرسة محمد على الابتدائية أذكره جيدا وأنا فى الثانية الابتدائية ... أحول العينين .. مبروم الشوارب ... أبيض الوجه أحمره .. قصير القامة . طويل الطربوش فاقعه .. شديد الاناقة .. كحلى البذلة .. ياقته بيضاء صلبة (منشاة) .

– وما دخل كل هذا بشقائك وتعاستك ؟ .

– سن المسطرة .. سن المسطرة يا أستاذ أجارك الله .

– ما باله ... ؟ .

– يهوى على ظاهر اليد ، وعلى الأصابع ، كان توفيق افندى يسألنا فى أول كل حصة عن معانى الكلمات التى درسها لنا فى الحصة السابقة ، ولا أذكر أنى ضربت كثيرا . ولكن شقائى لم يكن من مجرد الضرب .. بل كان من انتظار الضرب وتوقعه وتذكره . كان انتظار البلاء شرا من وقوعه ، وكانت حصة الانجليزى مصدر بلائى وشقوتى .. ان الاحتلال لم يعلمنى كره الانجليز . ولكن الذى علمنيه

هو توفيق أفندى . لقد جعل الانجليز واللغة الانجليزية ألد أعدائى . ولا أذكر بعد ذلك أنى رسبت فى امتحان الا كانت اللغة الانجليزية هى السبب . أرجو أن أضع توفيق أفندى فى الكفة بشواربه ومسطرته .

- أيها الأحمق .. تظن أن مجرد عقاب مدرس لتلميذ بليد سيرجح كفة شقائه ؟ ! .

- هذا ليس شأنك . ضعه أولا .

- هاكه ...

أمسك الكفة حتى لاتهوى الى الأرض ، أرأيت ؟ أرأيت أزهارك الخاوية الفارغة ... ؟ انها لا تزن مثقال شوكتين . ما رأيك فى الطفولة السعيدة المدللة .. ؟ انظر كيف خفت موازين السعادة فيها حتى باتت لا توازى حفنة شقاء . ما من انسان الا وله أحزانه وبلواه ...

- اصبر قليلا ، ما زال لدى من الأزهار الشىء الكثير .. سأرجح كفتى حالا .. دعنا من طفولتك البائسة ومن أم عطية وتوفيق أفندى . لننتقل الى صباك اليانع المورق النضر . دعنا نجمع كل هذه الأزهار التى نثرها عليك أبوك .. أو على الأصح صديقك وصاحبك ، بل انى سأضعه هو نفسه فى الكفة .. فهو خير ما أستطيع أن أثقل به كفة سعادتك .. أتتذكر أنه كان بين الآباء نسيج وحده ... ؟

- بين الآباء فقط ؟ .

- بل بين الناس أجمعين . أتذكر فلسفته فى الحياة .. ؟ انه ما أنبك ولا لامك قط .. وعندما رسبت فى الامتحان ونجح أخوك .. كافأك وأهمل أخاك . فلما دهشت والدتك وسألته كيف يكافىء الراسب ويهمل الناجح أنبأها أنك أحق بالعزاء . وأنه يكفى لأخيك فرحة النجاح .. أتتذكر

كيف كان يقرأ عليك قصصه ويأخذ رأيك فيها وهو الكاتب العبقرى وأنت ما زلت طالبا فى السنة الأولى الثانوية .. ؟ أتتذكر ضحكه الدائم ومزاحه الذى لا ينقطع ؟ أتتذكر فكاهته ونكاته وصوته يعلو بالغناء فيصل الى سابع جار ؟ سأضعه فى كفتى .. فقد كان وحده مصدر سعادة .

– ارفعه أيها الغبى . ضعه فى كفتى أنا .. ما كان أغناك عن أن تذكرنى بكل هذا . انه زهرة حفت بالشوك .. انظر الى مصدر السعادة كيف جعله القدر مصدر شقاء .. أتتذكر عودته الى الدار ذات يوم ورأسه مثقل وجسده منهوك وقدماه لا تكادان تحملانه ؟ أتتذكر كيف رقد على الفراش وراح فى غيبوبة .. انى اذكره تماما كأنى أراه رأى العين ... وهو راقد فى الحجرة المواجهة « للصالة » الفسيحة فى بيت الرمالى بجنينة ناميش .. لقد ظننا ما به مجرد تعب سريع الزوال ، ولكن الغيبوبة طالت ، واستدعينا الدكتور رضا ، ثم أخذ الأطباء يتوافدون على الدار الواحد بعد الآخر .. وأبصرت بطاقية الثلج توضع على رأسه بعد أن أزيل عنها الشعر .. وسمعت فيما سمعت من لغط أن ذراعه وساقه قد أصيبتا بالشلل .

ما بالك تنظر الى مشدوها ؟ عبىء الأشواك وضع فى كفتى .. أى صدمة صدمتها وقتذاك .. أبى .. القوى الجسد المفتول الذراعين ، الذى لم يكف يوما عن لعب « الدمبلز » و « الساندوز » . والذى كان يقبض بكفه على كتف أى انسان فيتهاوى أمامه . أبى .. الفخور بقوته المعجب بشكله يصبح رجلا مشلولا قعيدا ؟ ! لا لا .. هذا مستحيل . هذا أمر لايمكن تصوره . ومع ذلك فقد أضحى الشلل بعد ذلك أمنية يأباها علينا القدر . فقد استمرت الغيبوبة ، واستمرت الطاقية الثلجية ، واستمرت حقن الجلوكوز تدفع فى جسده الواحدة بعد الواحدة .. عشرة أيام وهو فى رقدته لم يفق سوى مرة واحدة . واحدة . ونحن ساهرون من حوله

لم يغمض لنا جفن الا في الليلة العاشرة عندما ظننا أن حاله قد أخذ في التحسن . ولكننا استيقظنا في الفجر على حركة غير عادية وأمر أخي (محمود) أن يسرع الى دار قريبة بها تليفون لاستدعاء الدكتور رضا .. وانطلق أخي يعدو خارج الدار ووقفت أمام الفراش وبقية الأهل . انى أذكر جيدا آخر ما رأيته .. لقد أخذ شهيقا طويلا ولم يخرجه . وشهيقا آخر ولم يخرجه .. ومرة ثالثة ورابعة . ثم كف عن الشهيق والزفير .. وأخذت أنظر اليه وأنا لا أفهم .. حتى سمعت صراخا من حولى .

وانطلقت من الدار أعدو وراء أخي لأطلب منه ألا يستدعى الطبيب .. لأن أبانا قد مات .

كانت كلمة غريبة على لساني ... ولا أذكر أني أفصحت بها في أول الأمر .. بل قلت له « خلاص » .. فلما سألني عما أعنى بكلمة (خلاص) قلت له : بابا ... مات .

كنت وقتئذ في الرابعة عشرة .. وأذكر أني ارتميت على الأرض أمزق الثياب وأغطية الأرائك بأسناني غير مصدق أن أبي مات .. حتى بدأ النعش يخرج من باب البيت . ورغب البعض في أن يحجزوني في البيت فلا أسير وراء النعش ، ولكني انطلقت أعدو وراء الجنازة واندسست بين المشيعين ونظرى معلق بالنعش المحمول على الأكتاف وقد وضع على حامله طربوش أبى ، أما طربوشه الآخر فقد كان على رأسي .

وسارت الجنازة من السيدة الى القلعة ، الى قرافة المجاورين ، وأنا لا أدرى مما حولي شيئا . ولا أبصر شيئا الا أبى الراقد داخل الصندوق الخشبي .

وبدأت مع السير أستشعر شيئا من السكينة وأحس أنى سائر فى صحبة ابى .. وأن الفرقة لم تحدث بعد ... ولم يعد لم أمنية سوى أن يطول الطريق وتظل الجنازة سائرة الى ما لا نهاية ، ولكن النهاية حلت .. ووصلنا المقابر ثم ودعنا وافترقنا .

ضع الأشواك فى كفتى أيها الحاسد وكفكف دمعك وجفف عبراتك .. ذلك هو صباى اليانع الناضر المزدهر . ما كان أغناك عن نكء القرح واثارة الذكرى .

- دعنا من هذا . انى آسف .. لقد رجحت كفتك فى ذلك العهد . ولكنى كفيل بترجيح كفتى بعد ذلك فما زالت فى جعبتى أكداس من أزهار السعادة .

- هات كل ما عندك .

- لحظات الحب المضيئة المشرقة .. التى كنت تحلق خلالها في أجواء السعادة والنعيم .. أتذكر قلبك المرهف الخفاق ، ومشاعرك الفياضة المتدفقة ؟ ! كنت من حبك دائم الثمل .. دائم النشوة . كنت انسانا سعيدا ما كففت عن الحب لحظة واحدة .. وما خمدت أشواقك أو انطفأ حنينك .. أتذكر ساعات النجوى ، وليالى اللقاء ؟ أتذكر الأصابع المتشابكة والأذرع المتعانقة ؟ أتذكر الأنفاس الممتزجة والشفاه المتلامسة والأعين المغمضة والنفوس الذائبة ؟ أتذكر ما صادفت من متع الحب وهنائه ؟ أى كفة تستطيع أن تتسع لكل ما لقيت من أزهار الحب ؟ دعنى أحشدها كلها حتى أسكتك .

- أزهار الحب ؟ رويدا أيها الغافل .. أى أزهار هذه التى تتحدث عنها ؟ انك لا شك لم تعرف الحب .. ألم تسمع أن لكل فعل رد فعل

متساويا له ومضادا له فى الاتجاه . ؟ كذا الحب .. لكل حب رد حب مساو له أو يزيد عنه . ومضاد له فى الاتجاه .. كل ما تلقاه من سعادة فى الحب مردود بالربح المركب .. اذا نعمنا باللقاء مرة شقينا بالهجر مرات .. ما بالك تذكر الانفاس الممتزجة والشفاه المطبقة وتنكر الليل الجاثم والمرقد الجافى . ؟ ما بالك تنكر النفس المسهدة والكبد الحرى ، والقلب المحترق . ان أزهار الحب التى وضعتها فى كفتك ازهار شائكة .. أشواكها أكثر من أوراقها ..انزع منها الأشواك وضعها فى كفتى .. أجل .. هكذا .. انظر . لقد رجحت كفتى . ماذا عندك بعد هذا من أزهار ؟ .

اطمئن .. لدى الكثير . الكثير جدا .. لن تغلبنى بأية حال .. خذ هذه .. أزهار النجاح .. اتنكر انك كنت انسانا ناجحا محظوظا ؟ لقد نلت كل ما تطلعت اليه ، ووصلت الى كل ما أردت الوصول اليه .

– أزهار النجاح دائما تنتهى بأشواك الخيبة .. خيبة الأمل وانهيار المثل العليا . كل ما تطلعت اليه نلته ، وكل ما أردت الوصول اليه بلغته ، ولكن كل ما نلته وكل ما بلغته قد وجدته عندما أصبح ملك يدى تافها زائفا . ان سعادة النجاح لا تدوم سوى لحظة خاطفة .. ثم يذهب أثرها عندما نكشف حقيقة ما كددنا فى سبيله .

– ألم أقل لك انك مخلوق كافر .

– كافر بماذا ؟

– بنعمة ربك .. بكل ما تاقت اليه نفسك ووهبه له . ألم يحقق لك أملك ويهب لك العمل الناجح ، والزوجة ، والأولاد ؟ .

– أما العمل الناجح فقد أضعت فيه عمرى .. لقد تعادلت فيه ازهار

التقدير مع أشواك الجهد ، كنت أتسابق مع الزمن حتى غلبني الزمن . ما حصلت على شيء الا دفعت من حياتي ثمنه .

– والزوجة والأولاد ... ؟ ألم يكونوا زينة حياتك الدنيا ؟ ألم يغمروا حياتك بالأزهار ؟ .

– بالأزهار فقط ؟ ألم أقل لك أنك « غشيم » لا تعرف شيئا عن الزواج أو الأولاد ؟ ضع كل ما لديك من أزهارهم وسأرجحه بشوكة واحدة .. هات ما عندك .

– خذ هذه .. وهذه .. وهذه ... هات أنت ما عندك .

– سأضع شوكة واحدة من أشواكهم . اذكر كيف وخزتني وقتذاك فأقضت مضجعي عشرين ليلة . كانت الطفلة التي تبلغ ستة الأشهر متألقة مزدهرة ... لاغية باسمة .. حتى أصابتها وعكة جعلتها تغرق في نوبة صراخ وبكاء ، ولم ندر ما بها ، واستدعينا الطبيب تلو الطبيب حتى تبين في النهاية أنها مصابة بالتهاب رئوى ، وبدأنا العلاج بالانتيفلوجستين ، والسيبازول . وانقضت مدة العلاج والحال كما هي واستدعينا (كونسلتو) من الأطباء ، فاتضح أنها قد أصيبت بصديد في الرئة . تصور طفلة ذات ستة أشهر تصاب بصديد في الرئة ولابد لعلاجها من اجراء البذل ؟ . وكان على أن أمسك بها للطبيب حتى يدفع في ظهرها بابرته الكبيرة لكي تصل الى الرئة حتى يمتص الصديد . واستمرت العملية يوما بعد يوم .. وكان البنسلين لم يعمم استعماله بعد ، ولم نستطع الحصول عليه الا بشق الأنفس ، وبدأنا الحقن ليل نهار كل ثلاث ساعات لا نكاد ننيم الطفلة حتى نوقظها .. وأعطيناها (الكورس) الأول مدة أسبوع فلم ينجح ، فكررناه أسبوعا آخر .. لا يغمض لنا جفن ولا تهدأ لنا نفس .

هذه احدى الأشواك المتكررة التى لا غنى عنها لكل أب رزىء بنعمة الأولاد . ما رأيك ؟ ألم أرجح الكفة ... ؟ أعندك أزهار أخرى ؟

– وما الفائدة اذا كنت تجد لكل زهرة شوكة ؟ ان من العبث ان أضيع وقتى معك . انك مخلوق مشاكس .

– أرايت أن الحياة لا تستحق العودة .. وأن البقاء أحمد ؟ ألم يبلغك قول على كرم الله وجهه : « آه من قلة الزاد وبعد السفر » لقد طوينا الطريق وختمنا السفر ، وهيهات أن نعود .. ابحث عن إبله غيرى .

– عندى فكرة جيديدة .

– ما هى ؟ .

– اذا كنت لم ترض عن حياتك ، فلعلك راض عن غيرها . ما رايك فى أن أعرض عليك كشف المواليد ، وسجل حياتهم لتنتقى الحياة التى تحلو لك .؟

– الحياة التى تحلو لى ؟ .

– أجل .. أظن أن هذه فرصة لم تسنح لمخلوق من قبل .. ستكون من تشاء .. ستتحكم أنت فى خلقك .

– هذه مسألة فى الواقع تستدعى التفكير .

– أى تفكير أيها الأبله ؟ ! انها لا تستوجب التفكير أبدا .. يجب أن تقبل بلا تفكير .

– بلا تفكير ؟ .

– أجل .. بلا تفكير ولا تخيير .. اذا كانت حياتك أنت لم تعجبك ..

وخرجت منها - كما تقول - خاسرا .. وغلب فيها شقاؤك سعادتك ، ورجحت كفة أشواكها كفة أزهارها .. فلا عليك .. خذ غيرها .

- أية حياة ؟ ! ! .

- أجل ! أية حياة ... اذا كان « توفيق أفندى » قد هشم أصابعك ، واذا كانت جدتك « أم عطية » قد سودت عيشك ، واذا كان فقد أباك قد أوجعك ، ومرض ابنتك قد آلمك ، فانتق حياة بلا توفيق أفندى ، وبلا أم عطية ، وبلا غير هذا مما أساءك فى حياتك الأولى .

- لا .. لا .. لاتحاول خداعى .. كل حياة لها أحزانها وأوجاعها .

- أنت عنيد مكابر .. كان يجب الا أتعب نفسى معك فى النقاش .. لقد أضعت وقتى سدى .. ان هناك آلاف الأرواح التى تقبل الهبوط معى راضية مسرورة .

- اذهب اليها اذاً .

- طبعا سأذهب .. وسأدعك وحدك تصلى نارا حامية .

- نارا .. ايه ؟ .

- حامية .

- أنا أصلى نارا حامية ؟ .

- ولم لا .. أظننت نفسك قديسا أم نبيا ؟

- أمتأكد أنت من أنى سأصلى نارا حامية ؟ .

- طبعا .

- اذاً انتظر ... لماذا لم تقل هذا من أول الأمر فتريحنى وتريح نفسك .. أين الكشف ؟ .

- أى كشف ؟ ! .

- كشف المواليد الذى تقول عنه .. أو كشف المستجدين المطلوب تجنيدهم فى الحياة .

- ليس كشفا .

- ماذا يكون اذاً ؟ .

- سجل .. كبير حافل .

- ليكن .. سجل أو كشف .. أين هو حتى أطلع عليه .. وأختار حياة أخرى أهبط اليها .

- تعال ... اتبعنى الى هذا الركن .. أجل هنا .. أترى هذا ؟

- تقصد هذا الجبل ؟ .

- ليس جبلا .

- ماذا يكون اذاً ؟ .

- هذا هو سجل المخلوقات .

- الذى تريدنى أن أطلع عليه ؟ .

- وتختار منه الحياة التى تلائمك .

- أنا اقرأ كل هذا ؟ .

- ألست أنت الذى تريد الاختيار ؟ ! .

-- ظننته كشفا أمر عليه فى لحظات كقائمة الطعام .. تخيل لو جلست فى مطعم واحضروا لك قائمة طعام فى سجل مثل هذا الجبل الذى تريدنى الاطلاع عليه .. ماذا كنت فاعل ؟ .

– كنت أموت من الجوع .. قبل أن أنتهى منه .

وأنا أيضا أفضل أن أموت وأشبع موتا .. قبل أن أقدم على قراءته .

– اسمع .. عندى فكرة .

– ما هى ؟ .

– لا ضرورة لأن تطلع على كل هذا .

– اذاً كيف أنتقى ؟ .

– أولا .. أقصر اطلاعك على فترة شهر أو أسبوع .

– ماذا تعنى ؟ .

– أعنى أن العجز الكائن لدينا فى الأرواح المطلوب حشرها فى المخلوقات الجديدة .. اعتقد أنه عجز مؤقت .. أى أننا لن نحتاج اليك للمساهمة فى سد هذا العجز الا فى خلال شهر على الأكثر .. مفهوم ؟ ! .

– مفهوم .. وبعدها تنفك الأزمة ؟ .

– أجل .. هذا محتمل جدا .

– وعلى ذلك فسيسقط عرضك بعد هذه الفترة ؟ .

– أعتقد .

– اذاً ليس أمامى الا أن أنتقى فقط من المواليد التى ستهبط الى الأرض عما قريب .

– هذا هو ما أقصد .

– أرنى اذاً .

– اليك هذا السجل الذى جهة اليمين . انه سجل مواليد يوليو الحالى .

– كل هذا ؟ .

– أجل .

– لا .. يفتح الله .

– اسمع .. هل تثق فى ؟ .

– أتريد الصراحة ؟ .

– طبعا .

– هذه الثقة .. مسألة مشكوك فيها .

– ولم ؟ ! .

– طريقتك فى الصعود بنا وطريقتك فى قبض أرواحنا طريقة بهلوانية تجعل الثقة فيك أمرا متعذرا .

– هذه مقادير لابد أن أنفذها .. وليس لى بها ثم ليس هناك موجب فى أن تتشكك فى لمجرد أنى أنوع أساليبى .

– ولكن هبنى أثق بك .. فماذا تريد ؟ .

– دع الأمر لى .

- لك أنت ؟ .

- أجل .. أدبره كيف أشاء .

- طبعا أنت الذى ستدبره .. وهل تظننى أعرف كيف أدبره ؟ .

- أقصد أن تترك لى مهمة اختيار الحياة المناسبة لك .

- لا .. لا .. هذه ليست مسألة من السهل التسليم بها . أتعرف معنى هذا ؟ .

- معنى هذا ؟ .

- معناه أنك تستطيع أن تزج بروحى فى مولود أو فى جسد أو فى مخلوق جديد .. ليس هناك شبه أو انسجام بينى وبينه .. وأعرف بعد ذلك أية حياة تعسة يمكن أن أحياها .. أنا أعرف فى حياتى السابقة مخلوقات من هذا النوع كانت حياتهم لا تطاق .

- كيف ؟ .

- مثلا أعرف رجلا قبح الله خلقه ، دميم الوجه ، هزيل الجسد ، يأبى الا الزج بنفسه فى ميادين الغرام وساحات العشق ، وكان يزعم لنفسه القدرة على ايقاع ربات الجمال ... وكان لا يكل عن محاولة تصيد اعجابهن .. ويروح بعد محاولاته الدائبة فى خيبة دائمة واخفاق مستمر .. هذا الرجل لا شك ذو روح مرهفة عاشقة ..... هى بروح دون حيوان أشبه .. قد حشرت فى جسد خطأ ... جسد كان لا يصلح الا لروح مجذوب من مجاذيب الحسين والسيدة .

- مسكين .

- ومثل آخر .. فتى كان زميلا لنا فى المدرسة .. أعجف هزيلا ..

لا تكاد تحمله رجلاه على ضعفه وهزاله .. أتتصور ماذا كانت أمنيته فى الدنيا ورغبته فى الحياة ؟ .

– لست أدرى ! .

– خمن ! .

– قل ولا تضع وقتنا فى التخمين .

– كانت أمنيته أن يكون رباعا .. أى والله .. كان يريد أن يخلف السيد نصير .. وكان يضيع ثلاثة أرباع وقته فى التمرين بالساندوز .. والتدريب على الأراشيه والبرس والكلين ونطر .

– على أية حال .. كل روح دائمة التطلع والتمنى الى ما قد يعجز عنه الجسد .

– لا ... لا .. أنا لا أقصد هذا .. انا اقصد الخلاف التام بين الروح والجسد .. لأن العكس أيضا صحيح .

– كيف ؟ .

– قد تكون الروح هى الأقل قدرة .

– لست أفهم .

– سأضرب لك مثلا .. عكس صاحبنا الهزيل الذى كان يريد أن يصبح رباعا .. زميل آخر كان له « جتة » هرقل .. كان ضخما قويا يستطيع أن يفرق « زفة » بأكملها .. ومع ذلك فقد وجدناه فى احدى المعارك فى مكان لا يخطر على بال كثير .. فأين وجدناه فيما تظن ؟

– وكيف أعرف ؟ .

- وجدناه مختبئا تحت احدى المناضد .

- كان جبانا ؟ ! .

- لا .. لا .. لم يكن جبانا .. كل ما فى الأمر أنه لم يكن هناك انسجام بين روحه وجسده ... وهذا هو الذى أبدى عمله مستغربا ، وهذا هو الذى جعله ملوما مذموما بين الناس . فلو أن روحه وضعت فى جسد هزيل ما لامه أحد وما شقى فى حياته وأصبح موضع هزؤ وسخرية .. ومثلا آخر : صديق لنا مهيب المنظر ، فاخر الشكل ، له سمات الحكام وذوى السلطان وأهل الجاه والعلم .

- وأى عيب فى ذلك ؟

- العيب فى هذا أن رحه لم تكن لها هيبة ولا فخامة .

- كيف ؟

- كانت روح مهرجة مهذار .. وكانت تأبى الا أن تجعل الجسد المهيب الفاخر موضع ضحك وسخرية .. ومثل آخر ..

- لا .. وأرجوك .. فكفى أمثلة .. ليس لدينا وقت لسماع المزيد من الأمثلة .

- هل فهمت اذا ؟

- تماما .. أنت تريد جسدا يلائم طبيعة روحك .

- ليس ملائما فقط .

- ماذا أيضا ؟ .

- ملائما وقديرا .

-- قديرا ؟ .

-- أجل .. له القدرة على تنفيذ كل رغباتها وأمنياتها .

-- هذه مسألة عويصة جدا .

-- هذا هو شرطى للنزول .. فأنا كما تعلم زاهد فيه .. ولست على استعداد قط لأن أعاود مرة ثانية المغامرة فى حياة متعبة شاقة .

-- اذن فأنت تريد جسدا ملائما لروحك وقديرا على رغباتها ؟

-- بالضبط .

-- هذا يحتم على قبل أن أبدأ البحث أن أعرف بالضبط ماهية روحك وماهية رغباتها وأمانيها .

-- طبعا .

-- اذا فصف لى روحك !

-- هذه فى الواقع مهمة صعبة .

-- وما صعوبتها ؟

-- فى وصف الروح يترجح الانسان بين الغرور والتواضع .. أخشى أن يرفعها الغرور أو يخفضها التواضع .

-- صفها كما هى .. كأنك تصف روح غيرك .

-- حسنا سأحاول .

-- هيا .. تكلم .

-- أول صفة فيها الارهاف والشاعرية والولع بالجمال .

- هذه مسألة هينة .. لن نعدم فى هذا الشهر مولد شاعر أضعف فى جسده .

- شاعر ؟ .

- أجل ! .

- وهل يكون جسد هذا الشاعر .. قويا متينا يستطيع لعب « الاسكواش » والسباحة والحصول على بطولات الرياضة التى أتوق اليها :

- ماذا ؟ ! ماذا ؟ ! شاعر يلعب « الاسكواش » ويحصل على بطولات رياضية ؟ ! بالطبع لا .

- اذا لا يصلح .. أنا أذكر بعض الشعراء المعاصرين فى حياتى .. أبغضت الشعر من أجلهم عندما رأيتهم .. لقد كانوا منبوشى الشعر .. لا ترى بينهم الا أعجف هزيلا أو أكرش بدينا .

دعك اذاً من الشعراء .. استطيع أن أحشرك فى جسد بطل « للجمباز » والقفز والوثب .. سيولد غدا .. فما رأيك فيه ؟ .

- بطل « جمباز » .. قوى الجسد ؟ .

- جدا .

- ووجهه ؟ .

- ماذا تريد من وجهه ؟ .

- هل وجهه جذاب ؟ .

- جذاب .

- هل يوقع النساء بسهولة ؟ .

- والله لا أظن .

- ولكني ولوع بهن ، وأريد أن أكون قديرا على ايقاع أكبر عدد منهن .

- فى هذه الحال .. انسب جسد لك هو جسد ممثل فتي أول .. سيولد بعد باكر .. اعتقد أنه سيكون وسيما جدا .. وسيوقع فى حبائله ثلاثة أرباع مشاهدات الشاشة من المراهقات .. ما رأيك ؟

- لا بأس .... ولكن ..

- لكن ماذا ؟ .

- شخصيته .

- على الشاشة ؟ .. اطمئن .. يقوم بأدوار الشهامة والقوة .. وكل ما تريد من الصفات المحبوبة .

- لست أقصد على الشاشة .

- ماذا تقصد اذا ؟ .

- شخصيته الحقيقية .. شخصيته التى يحيا بها .

- ومالك وشخصيته الحقيقية .. الممثل .. لا قيمة له الا على الشاشة .

- ولكن شخصيته التى يعيش بها .. هل هو ذكى المعى لوذعى عبقرى ؟ ! .

- ايه ! ! ايه ! ! المعى ولوذعى ! ! طبعا لا .. فى الحياة لن يكون المعى ولا لوذعى .. بل ابن آدم عادى .. تافه كغيره من التافهين .

- تافه ! ! لا .. أنا لا أريد أن أكون انسانا تافها ، أريد أن أكون ذا شخصية وذا قيمة .

– عالم مثلا .. أو كاتب ؟ .

– شيء من هذا القبيل .

– اسمع .. سيولد بعد غد ... جراح .. وسيكون له كما يقولون « شنة ورنة » ، فما رأيك فيه ؟ .

– أيكون شهيرا ؟ .

– جدا .

– ومظهره ؟ .

– لا بأس به .

– وشخصيته ؟ .

– ممتازة .

– ومركزه بين النساء ؟ .

– محبوب جدا .

– هذا لقطة .

– وشيء آخر يميزه أيضا .

– ماذا ؟ .

– سيكون بطلا من أبطال الرياضة وهو في كليته .

– مدهش .

– وله ذوق حساس ونفس مرهفة .. وسيقرض بضع قصائد من الشعر .

– عجيب ! . هذا هو المطلوب .. بالضبط ... لم لم تحدثنى عنه من قبل ؟ .

– اذا كان يعجبك فعليك به .. انه خال ينتظر الروح التى ستزج به الى الحياة .

– انتهينا .. لقد اخترته .

– حسن .. اتفقنا ؟ .

– اتفقنا ! .

– ثمة شىء آخر .. أريد أن أطلعك عليه حتى تكون على بينة من كل شىء .

– ماذا أيضا ؟ .

– عندما يبلغ الثلاثين .

– سيرشح للوزارة ؟ .

– لا .. سيصاب بالسل .

– ماذا تقول ؟ .

– ويعيش بقية حياته مصدورا .

– أيها الماكر الخبيث .. أهذه حياة تختارها لى ! ؟ .

– ألم تعجبك البداية ؟ .

– والنهاية ؟ أية سعادة فى اصابة بالسل فى عز شبابى .. لا ... لا ... يفتح الله .. بينى وبينك ربنا .

– اسمع .. لا فائدة من أن أختار لك أنا .

- ما العمل اذاً ؟

- لدى « فهرس » مختصر ... تستطيع أن تلقى عليه نظرة فى بضع دقائق واختر بنفسك من تشاء .

- أيوجد به توضيحات ؟ .

- أجل .. معلومات ملخصة مختصرة .. ها هو ذا ... لايزيد على بضع صفحات .

- هذا معقول .. شيء ممكن قراءته ... بدل هذا التل من الأوراق .

- ألق عليه نظرة .. علك تجد مخلوقا يعجبك تحل فيه .

- أرنى .. المخلوق الأول « عبد المجيد جاد الرب » سباك بدرب العنبة ابن الأسطى جاد الرب وسيدة العمشاء يتعلم الصنعة مع أبيه ويظل سباكا فى درب العنبة حتى نهاية حياته .. يتزوج فهيمة الفرارجية وينجب سبعة عشر ولدا . ما شاء الله .. حياة رغدة جدا .. ما هذا يا سيدنا ؟ ! أتلك هى الحياة التى تريدنى أن أهبط مرة أخرى لأحياها .. سباك وعمشاء وفرارجية وسبعة عشر ولداً ! خذ ! خذ ، ولا تضيع وقتنا .

- يا أخى صبرك .. دعك من هذا .. خذ الذى بعده .

- اذا كان كل مواليدك من هذا النوع ، فلست أجد أملا فى الاطلاع على بقية الكشف .

- يا سيدنا .. صبرك لا تكن عجولا .. نحن لدينا مواليد من جميع الأصناف والطبقات . فأرجو أن تقرأ .

- المخلوق الثانى .. زكية فلمنك .

- زكية ايه ؟ .

- فلمنك .. هكذا مكتوبة .

- أجل .. أجل .... تذكرت .. هذا سيصبح اسمها بعد حين .

- زكية فلمنك .. راقصة عالمية .. تولد فى شق التعبان .. تقضى طفولتها فى لم « السبارس » ، وصباها فى غسل الصحون ، وشبابها فى هز الصدر والأرداف .. يلمع نجمها فى سماء الفن . تموت فى هوليود بين أروقة استوديوهات م . ج . م . ما هذا الخلط والهذر ؟ تولد فى شق التعبان وتموت فى هوليود ؟ .

-قضاء الله .

- على أية حال هذه مسألة لا دخل لى بها . لتمت أينما شاءت .. فهى لا تدخل فى دائرة الاختصاص .

- كيف ؟ .

- لا استطيع بالطبع ان أهبط فى جسدها .

- ولم ؟ .

- لم ؟ ! هل تريدنى ان اهبط الى جسد امرأة ! !

- وماذا يضيرك ؟ .

- وراقصة ؟ ! .

- وأى عيب فى ذلك ؟ .

- وأمسك الصاجات .. وارقص على واحدة ونصف ؟ .

- واحدة ونصف .. اثنين .. ثلاثة ... باليه .. رومبا .. هذه مسألة تخصك وحدك ولك مطلق الحرية فيها .

- اسمع .. أتهزل ؟ .

– بل أتكلم جادا .

– لو كنت مكانى .. أكنت تهبط فى جسد راقصة ؟ ! أتقبل بعد حياة الرجولة التى حييتها .. أن تصبح امرأة .. وأى امرأة ؟ !

– ولم لا .. حياة جديدة ليس لك بها عهد .. ألا يحتمل أن تكون اسعد من حياة الرجولة التى حييتها ؟ .

– يحتمل .. ولكن على أية حال .. لا أريدها .. لست أجد فى نفسى أى كفاءة للمهنة الجديدة ولا للحياة الجديدة .

– أنت وشأنك .. خذ التى بعدها .

– لنر التى بعدها .. « عباس الهميمى » رئيس عصابة قطاع طرق فى قنا .. يقتل خمسة وأربعين رجلا ويتزوج خمسا وعشرين امرأة ويموت مشنوقا .. ما هذا يا أخانا ! ! أهذه حياة ! ! ألأنا أصلح لقتل خمسة وأربعين رجلا ؟ ! .

– لاحظ أنه تزوج أيضا خمسة وعشرين امرأة ! .

– والله هذه مسألة تستدعى التفكير .

– غير الصداقة .

– أهناك أيضا صداقة ؟ .

– طبعا ..

– حياة ممتعة ولا شك .. مليئة بالنساء .. ولكن أتراهن جميلات ؟

– لاشك بهن شىء جميل .. على الأقل نصفهن .

– والله مسألة فيها نظر .. ما رأيك أنت ؟ .

- أقبل ولا تتردد .

- ولكن الشنق ؟ .

- كلها موتة .

- والعذاب في الآخرة ؟ .

- كله عذاب .. ما من حياة الا ولها ذنوبها .

- لكن القتل ... فظيع .. لا أستطيع .. لن أجسر عليه .. ستكون مشكلة عويصة .. بين روحي المسالمة ، وجسده المعتدى الهاجم .. لا ... لا ... لا أظنني أصلح لهذه الحياة .

- أنت متردد .. اقرأ الذى بعده .

- « سناء سامح » الشهير بسونة .. رجل أم امرأة ؟ .

- أظنه رجلا .. اقرأ وأنت تعرف .

الشهير بسونة .. ابن الوجيه سامح باشا والنبيلة راجية .. هذا مولود « ارستقراطى » ابن عز .

- أكمل ... أكمل .

- يولد في قصر المنيل .. وفي فمه ملعقة من ذهب طبعا !

- أكمل يا أخى ... وأرجىء تعليقاتك حتى النهاية .

- ولم أكمل ؟ ! هذا انسان مولود في قصر .. ماذا أبغى أكثر من هذا .. أنا نفسي ولدت في حياتي السابقة في حارة الروم ... في الدرب الأحمر .

- اذن يعجبك هذا المولود ؟ اتفقنا ؟ ! .

- على ماذا ؟ ! انتظر .

- يا أخى أكمل ودعنا ننتهى .

- يولد فى قصر المنيل .. يقضى طفولته بين الدمقس والحرير والذهب .. ويقضى حياته مدللا بين أقصى مظاهر العز والرفاهية .. مدهش .. هذا مولود مثالى .

- أقرأ .. أقرأ .

- وفى شبابه يموت أبوه ويرث كل ثروته .. ألف فدان وأربعة قصور ... يا سلام .. أظن ليس بعد هذا حياة ؟ ! .

- أكمل .. قل لنا كيف يموت ؟ .

- كيف يموت ؟ ! يرث ألف فدان وأربعة قصور .. ويموت ؟ ! يموت .. ما هذا ؟ لابد أن يكون قد حدث خطأ .. لا شك أن هذه الموتة قصد بها مولود آخر .. أجل .. أجل .. لابد أن يكون حدث خطأ كتابى .

- ليس هناك خطأ ... قل ... كيف يموت ! ؟ .

- يموت معدما فى درب طياب .. لا .. لا هذا ليس معقولا بالمرة .. هذه موتة قد تصلح لصاحبك عباس الهميمى رئيس العصابة .. أو عبد المجيد جاد السباك ، ولكن لسونة وريث الألف فدان .. غير معقول أبدا .

- اسمع .. لاتكن ثرثارا .. ان مهمتك أن تختار فقط .. لا أن تعترض أو تعدل ؟ .

– ولكن هذا شيء لا يقبله عقل .

– لم ؟ .

– كيف يموت معدما .. وهو وريث ألف فدان ؟ .

– أهذا شيء عجيب ! .

– بالطبع .

– فقدها .

– فقدها ؟ ! . كيف ؟ ! أهي بضعة قروش يفقدها بمثل هذه السهولة ؟ .

– ألا تعرف كيف يفقد انسان الف فدان ؟

– أنا شخصيا لو أعطيتنى ألف فدان فلن أعرف كيف أفقدها .

– فقدها .. بالقمار ... أعلمت ؟ ... أما زلت مصرا على أن ألف فدان .. شيء يصعب فقده ؟ ! .

– آه .. بالقمار .. اذن فهو مقامر ؟ .

– أجل مقامر .

– علمنا هذا .. ولكن ماذا سيذهب به الى درب طياب ؟ وكيف سيموت ؟ .

– سيذهب الى غرزة حشيش .. وسيموت عقب شده نفسا حاميا يكتم أنفاسه .

– إذن فهو حشاش ؟ .

- أجل حشاش ... وأية غرابة فى ذلك ! ! .

- أية غرابة ؟ ! امعقول ان يكون ربيب العز « الأرستقراطى » حشاشا ؟ .

- بل غير المعقول ألا يكون كذلك .. ان الحشاشين قد اضحوا اهل العز و « الأرستقراطية » .

- على أية حال .. دعنا منه .. انا لست على استعداد لأن أكون مقامرا ، وأن أبدد من الفدادين ألفا جمعها سامح باشا المسكين .. ولست على استعداد أيضا لأن أختم حياتى فى غرزة بدرب طياب .

- أنت وشأنك .. اقرأ الذى بعده .. أنت متعب جدا .. لا يعجبك العجب ... ولا الصيام فى رجب .

- اسمع .. اذا كانت كل مواليدك بهذه الكيفية وهذا الحال ، فلا داعى لأضاعة وقتنا .. ان حياتى السابقة التى لم أرض عنها كانت بلا شك أفضل من هذه الحيوات التعسة .

- ألم أقل لك أيها الكافر .. الناكر للمعروف .

ومع ذلك فلم تعجبنى .. لقد كنت اكثر احساسا بالشقاء .. وليس أدرى بهذا منى .. هل تظنني أدعى أو أفترى .. أؤكد لك أنى فى أسعد لحظات حياتى كنت أفضل الخروج منها .. يا أخى لا أريد الحياة .. أهى مسألة قوة ؟ .

- لا تغضب .. المسألة ليس فيها قوة ما .. اقرأ .. اقرأ .. فقد تجد ما يعجبك .. لا داعى لهذا التعجل .. هات ما بعده .

- نفوسة عبد القادر .

– دعك منها .

– شلبية سلامة .

– دعك منها أيضا .

بهانة عبد الرحمن .

– دعك من الحريم ... هات ما بعدها .

– ألا تقرأ ما كتب أمامهن ! .

– ولم ؟ ! ألم تقل انك لا تقبل ان تكون امرأة.. بعد طول رجولة ؟ ! .

– أجل .. ولكن من باب التسلية والعلم بالشيء .

– لا .. لا ... ليس لدينا وقت للتسلية ولا للعلم بالشيء .. اقرأ ما بعده .

– عبد الحليم أبو رابية .. هذا لابد أن يكون شيالا .. أو صاحب مصنع حلاوة طحينية .

– يا أخى اقرأ .. أرجوك .. وكفى تعليقا .

– عبد الحليم أبو رابية .. ما هذا ؟ . غير معقول ! ! لا يمكن ! !

– ما هذا غير المعقول ؟ !

– عبد الحليم أبو رابية .. زعيم .. أتصدق ؟

– زعيم ؟ .

– أى والله .. زعيم .. مرة واحدة .. هذه لقطة .

– أمتأكد أنت ؟ .

– خذ اقرأ .

– عبد الحليم أبو رابية .. زعيم .. عجيبة ! ! هذه نادرة .. لا تكاد تحدث الا كل قرن .

– انتهينا .

– على ماذا ! .

– على أن أكون عبد الحليم رابية .

– ولكن ..

– ليس هناك لكن .. لقد تركت أنت لى حرية الاختيار .

– ولكن هذا لا يدخل فى دائرة الاختيار .. انه شىء نادر .. لقد تركت لك حرية الاختيار بين الأحجار ... أما هذه الجوهرة فدعها جانبا .. انها بالطبع لا يمكن ان تكون موضع اختيار .. اقرأ ما بعده .

– لن أقرأ شيئا .

– لم ؟ .

– اما هذا .. واما لا .

– أفتحنث فى وعدك ؟ .

– أنت البادىء بالحنث .. لقد قلت لى اختر من تشاء فلما وقعت على المخلوق الملائم .. عنت « تتدلل » وتقول انه خارج الدائرة .

– لم أقصد التدال .. ولكن ليس من السهل تسليم هذا المخلوق لأية

روح . انه مخلوق ممتاز يحتاج الى روح ممتازة قديرة على تمكينه من تأدية رسالته .

– أو تظن أن روحى تعجز عن تأدية الرسالة ؟ .

– أظن .. بل أجزم أنها ستعجز .. ماذا تظن المسألة .. انها زعامة ! ! زعامة ! ! هل تعرف معنى الزعامة ؟ .

– رأيتها فى حياتى وقرأت عنها .

– ما رأيك فيها ؟ .

– والله تتوقف على نوع الزعيم .. ونوع البلد .

– فى بلدكم أنتم ؟ كيف رأيتها ! !

– رأيتها .. شيئا مستطاعا .. ليس عسيرا بالغ العسر تحتاج الى نوع من المحافظة على التوازن عندما يحمل الانسان على الأكتاف !

– أكتاف ؟ أيها الأبله .. هل تظن الزعامة مجرد حمل على الأكتاف ؟ .

– وقدرة على رفع الأكف الى الرأس لرد التحيات .

– ما هذا البله ؟ .

– بله ؟ ! أليس مفروضا على الزعيم أن يحمل على الأكتاف ويرد تحيات الناس ! ! .

– هذه ليست أعماله الأساسية انها مجرد نتائج لما سيقوم به من جلائل الأعمال ... فيجب قبل أن يكون قديرا على حفظ توازنه على

الأكتاف أن يكون قديرا على تأدية الأعمال التى ستجعله يرفع على الأكتاف .

– والأعمال الجليلة هذه .. مسألتها عسيرة أم هى بالنيات ؟

– نيات ؟

– أجل .. ألا تعرف أن الأعمال بالنيات ؟ .

– أهكذا كانت عندكم أعمال الزعامة ؟ .

– أعتقد هذا .

– اسمع يا هذا .. الظاهر أنه ليس لديك أية فكرة عن الزعامة .. ولهذا طلبت الهبوط الى جسد المولود النادر الثمين .. لا ... لا ... ان المسألة ليست بمثل هذه السهولة .. ان الزعيم صانع معجزات ومظهر خوارق ، ولست أظنك واجدا فى نفسك الكفاية لذلك .

– ظن ما تشاء .. لقد اخترت وانتهى الأمر .. اما أن أكون زعيما واما أن تتركنى أصعد .

– الى جهنم ؟ .

– جهنم .. جهنم .

– جهنم خالدا فيها أبدا ! .

– أبدا ... أبدا .. لايهمنى .. أهى حرقة .. أم حرقتان !

– الظاهر أنك عنيد جدا ! ! .

– لن أقبل العودة الى الأرض الا زعيما .

– يا أخى لقد قال مثلكم « شيل على قدك » .. والزعامة ليست « قدك » يا أخى .. أمامك مئات الأرواح غيرها .. اسمع نصيحتى .

– لقد قلت كلمتى وانتهى الأمر .

– اذا فأنت تصر على أن تحل فى جسد الزعيم ؟ !

– أجل .

– وتصبح وحدك مسئولا عن حياتك الضخمة وأعمالك الجليلة ؟

– طبعا سأكون مسئولا عن كل ما بها .

– ولن تنوء بحملها . أو تكل من أعبائها ؟ .

– ما تظننى ؟ أمستضعفا .. أم صعلوكا ؟ ! طالما شعرت فى حياتى السابقة أننى جدير أن يكون زعيما .

– هكذا ! !

– أجل هكذا .. سترى ما سأفعل فى حياتى الجديدة ... سأريك الزعامة على أصولها .

– والله أخشى أن تخذلنى وتضيع هيبة الزعامة ... وتخلط فى أعمالها ، لاحظ أن حياتك ستكون جهادا ومشقة .

– أنا أحب الجهاد والمشقة .. انى أستعذبهما .. ما داما ينتجان أعمالا جليلة وينتهيان بنهاية حافلة مشرقة .

– على أية حال لقد وعدت أن أعطيك الحياة التى تختارها .. وليس أمامى الا الوفاء بوعدى .. سأمنحك الفرصة .. فمن يدرى ! ! ولكن على شرط .

– أى شرط ؟ .

– ألا تركب رأسك وتستبد بحياتك .. وتتبع هواك فتركب شططا لا قبل لنا على دفعه .

– ماذا تريدنى اذاً ؟ .

– استعن بى .. واسمع مشورتى .

– كيف ؟ .

– سأكون بجوارك دائما .. أسألنى فى كل ما يستعصى عليك .. وسأرشدك عن كل ما تريد .. سأريك ما يجب أن تفعله وما يجب أن تنتهى عنه .. مفهوم ؟ .

– ستكون لى اذاً بمثابة المرشد ؟ .

– أجل .. فانى أعتبر نفسى مسئولا عن هذه المغامرة ومسئولا عن حياة الزعيم النادرة التى سأسلمها اليك .

– اتفقنا .. هيا بنا .

● ● ●

الفصل الثانى

(المنظر : فى السماء على مقربة من مسكن محمد افندى أبو رابية موظف فى الدرجة السادسة بحسابات وزارة الأوقاف وهو شقة متواضعة فى شارع التلول المتفرع من شارع السد البرانى بالسيدة زينب .. من النافذة تبدو غرفة نوم رقدت فيها الست زنوبة زوجته وهى تعانى آلام الوضع .. وبجوارها عيوشة الداية وبعض الأقارب .. الوقت فجر .. الجو صيف .. عزرائيل وأنا نحلق معا فى الخارج) .

عزرائيل يبدأ الحديث :

- هيا انزل .

- ......

- قلت لك انزل .. ألا تسمع ؟ .

- مالك مستعجلا هكذا .. أطارت الدنيا ؟ . ما زال أمامنا سبعون سنة فى سجنها .. دعنا نتنسم عبير الحرية لحظة .. دعنا نشم الهواء .

- ليس لدينا وقت ... شم الهواء بعد .. سيكون لديك سبعون سنة تشم فيها الهواء كما تشاء .

- أهكذا ضقت ذرعا بصحبتى ؟ .

- لم أضق بك ذرعا ، ولكن الموعد قد أزف .

- أى موعد ؟ .

- موعد ميلادك .. موعد ظهورك فى الحياة . موعد بزوغ نجم جديد .. مولد الزعيم .

- دعه يتأخر لحظة .

- كيف ؟ لايمكن .. ان مواعيدنا تتم بالثانية .. مواعيد محددة مضبوطة .

- ومتى موعدى ؟ .

- منتصف الساعة الخامسة تتلوها أربع دقائق وخمس وعشرون ثانية فى الفجر .

- هذا موعد سخيف جدا .

- ولم ؟

- المفروض أن أكون فيه مستمتعا بأحلى نومة ، لست أكره شيئا كيقظة الفجر .

- لا بأس ، تحملها اليوم .. ونم بعد ذلك كما تشاء . هيا انزل .

- الى أين ؟ .

- الى جسدك .

- أين هو ؟ ! .

- أسفلك مباشرة .

- وكيف أهبط اليه ؟ .

- قفزا من هذه النافذة المضيئة ... أتراها ؟ .

- أنا أقفز من نافذة ؟ ! حاشا لله ... بعد هذا العمر الطويل من حياة محترمة ، والخروج من الدنيا وقورا مهيبا أهبط اليها من نافذة ، ماذا يقولون عنى ؟ لص أم عاشق ؟ .

- يا أخى لا تكن سخيفا ... لن يقول عليك أحد شيئا من هذا ... لأنه لن يراك أحد .. اهبط بسرعة كما يهبط القفاز فى حوض السباحة ، ألم تر ديفنج فى حياتك ؟ .

- رأيته .

- افعل مثله .

- لا أستطيع .

- ولم ؟ .

- أخشى أن ترتطم رأسى فى حافة النافذة ويسيح دمى .

- اهبط أيها الغبى .. ليس لك حتى الآن رأس ولا عندك دم ... اهبط فقد أزف الوقت .

- اقترب منى حتى تريني النافذة .. أخشى أن أخطئها .. وأهبط الى نافذة أخرى .... تكون امرأة نائمة فتظن بى سوءا .

- أيها الخبيث .. أنا أعرفك .. ان هذا أمنية لك .. ولكن اطمئن انك

لن تخطىء .. انها النافذة الوحيدة المضيئة فى الحى كله . ومع ذلك فسأهبط معك .. هيا .

- ما هذا ؟ ! انتظر .

- أنتظر .. ماذا ؟ .

- لابد أننا أخطأنا المكان .

- لم ؟ .

- أنا أعرف هذا المكان من قبل .. انى أستطيع تمييزه تماما .. أليس هذا هو شارع السد ؟ .

- أجل ! .

- وهذا أيضا هو شارع التلول ؟ .

- أجل .

- وبعد ذلك تقول لى لم نخطىء ؟ .

- طبعا لم نخطىء ، ان هذا هو البيت المقصود .

- بيت الزعامة ؟ .

- أجل .

- فى شارع التلول ؟ .

- وماذا فى تلك ؟ .

- لا .. لا ... انك تضحك على .. انك تغشنى .

- كيف أغشك ؟ .

– نهبط فى شارع التلول وتقول لى هذا بيت الزعامة ؟ بيت الزعامة يكون غالبا .. فى الدقى ، فى الزمالك ، فى جاردن سيتى .

– يا أخى ربنا يفتحها عليك بعد ، وتقطن كما تشاء ، تحمل الآن . ما دام قضاء الله أن يكون مولدك هنا .

– فى حياتى السابقة لم أكن زعيما .. بل كنت مجرد كاتب لا هنا ، ولا هناك ، وولدت فى الدرب الأحمر .. فكيف أولد وأنا زعيم فى السيدة ؟ بل فى شارع التلول ؟ .

– المفروض أنك زعيم شعبى ، وهذا شىء ستفاخر به فى المستقبل .

– ولكننى أفضل التنازل عن هذا التفاخر .

– ألم أقل لك انك لا تصلح للزعامة ؟ . ألم أقل لك انها شىء كثير عليك ؟ وأنها جهاد ومشقة ؟ .

– قلت لى انها جهاد .. ولكن لم تقل لى انها فقر .. هذه بداية تعسة .. أول القصيدة كفر .

– الاحساس بالفقر بعض الجهاد ، لابد أن تحس آلام الشعب الذى ستقوده .

– تعنى أننى سأجوع ، وأمرض ، وأمشى حافيا ... لا ... لا .. حد الله بينى وبينك .. عد بى .

– الى أين ؟

– الى فوق .

– الى فوق ؟

– أجل الى فوق ، الى النار الحامية التى تهددنى بها .

– اسمع يا أخانا .. أنا لن أسمح بمثل هذا العبث .. ان الوقت قد أزف ، وليس أمامنا الا بضع دقائق .. وهى لا تكفى للحصول على روح غيرك ، فأرجوك ، كفى اضاعة وقت ، وكفى احراجا .. لابد أن تكون رجلا ، وتفى بموعدك ، لقد قلت انك تريد أن تكون زعيما ، فعرضت عليك الزعامة . ماذا تريد بعد ذلك ؟ .

– أية زعامة هذه التى تولد فى شارع التلول ، وتقاسى الفقر والمرض ! .

– لن تقاسى شيئا ، اطمئن .. اهبط معى وكفى مضيعة للوقت ..هيا أرجوك .. ان الست زنوبة تكاد تخمد أنفاسها من فرط الألم والصراخ .

– الست زنوبة ؟ .

– أجل ..

– من تكون الست زنوبة .. هذه ؟ .

– أمك .

– أمى أنا ؟ ! زنوبة ؟ .

– ما لها زنوبة ... عيب ؟ .

– زعيم ، وأمه زنوبة ؟ .

– ماذا تريد أن تكون أمه اذاً .. كاريوكا ؟ .

– كنت أفضل أن تكون تماضر الخنساء ... أو على الأقل جان دارك .

– أرجوك من فضلك . ليس هذا وقت مزاح .. هذه كلها أشياء منتهية .. لقد كانت وانتهى الأمر .. اسم أمك .. اسم أبيك .. مكان ميلادك .. كل هذه أشياء مقررة مكتوبة .. لا قبل لنا بتغييرها ... مفهوم ؟ .

– عبد الحليم ... أبو رابية ابن زنوبة بشارع التلول .. ماذا أيضا قد تقرر فى مصيرى .. وانتهى أمره ؟ !

– كل شىء .

– كل شىء ؟

– أجل كل شىء .

– ماذا تعنى ؟ .

– أعنى أن مصيرك كله تقرر . بوصفك زعيما ، وأن عليك التنفيذ لا التغيير ولا الانتقاد ولا التعديل .

– هكذا ؟ .

– طبعا هكذا .. ماذا كنت تظن ؟ ! أتصنع أنت حياتك بنفسك ، وتقرر مصيرك وأعمالك بيدك !

– طبعا ! .

– ما شاء الله ! ! والله لو تركتك لتقرر مصيرك لغرقت فى شبر ماء .. اسمع وحياة والدك .

- أيهما ؟ .

- السابق واللاحق .. اسمع لقد قلت لك من قبل .. عليك أن تنفذ حياتك بأمانة . وقلت لم أنها حياة جهاد ، ومشقة .. وأنى سأكون بجوارك أرشدك الى كل شيء حتى أطمئن على حسن سيرك وطيب سلوكك . ولقد قبلت أنت عن طيب خاطر .. فماذا حدث حتى تعود - وقد أزف الوقت - الى التردد والتدلل ؟ .

- بدايتك التى لا تبشر بخير .. أول القصيدة الملىء بالكفر .. ان أول ما أريتنيه من الزعامة لا يتفق مع ما رسمته لها فى ذهنى من أبهة وفخامة .. لقد داخلنى منك خوف من خديعة وتغرير .

- أنا لا أخدع ولا أغرر .

- اذن فلندع اسم الخداع والتغرير .. أخشى أن يكون بيننا اختلاف فى وجهات النظر ، وفى صفات الزعيم .

- ليكن ما ترى .. ماذا تريد الآن ؟ .

- أريد أن يكون الاتفاق على نور .. اريد أن أكون على بينة .

- بينة مماذا ؟ .

- من الحياة التى أوشك أن ازج بنفسى فيها .

- ألم تخترها أنت بنفسك ؟ ! انها حياة زعيم .. وكفى .

- لا . لا. دعنا من « كفى » هذه .. أريد التفاصيل .

- أهذا وقت تفاصيل ؟ ! كل ما أمامنا لا يزيد على بضع دقائق ،

وتريد منى أن أذكر لك تفاصيل حياة زعيم تضيق عنها صفحات كتب التاريخ .. ألنت من بنى آدم ؟ .

- حتى الآن ؟ ! لا .

- كن رجلا طيبا . ابن حلال . هيا بنا .. هيا .

- لن أهبط حتى أعرف مصيرى بالتفصيل .. وأعرف حياة الزعيم هذه التى تريد أن تلبسها لى .... والتى لا يبدو بها - من بدايتها - أية صلةٍ ولا شبه بما أعرفه عن الزعامة والزعماء .

- أيها الفظ غليظ القلب .. ألا تسمع الصرخات ؟ ! .

- أية صرخات ؟ !

- صرخات أمك زنوبة .

- وما لى أنا بصراخها ؟

- اهبط وخلصها من الآم الوضع .

- أنا ؟ !

- أجل .. أنت .

أنا لم أكن بذى دراية فى مسائل الولادة قط .. لابد أن يكون بجوارها داية أو دكتور .. انى أغرق فى شبر ماء فى مثل هذه المسائل .

- لست أطلب منك توليدها .

- كيف أخلصها اذن ؟ .

- بأن تولد أنت نفسك ، بأن تهبط الى الجسد المحشور فى بطنها

فتبعث فيه الحياة .. وتخرجه على ظهر الأرض .. اهبط قلت لك ، وارحم المرأة من آلامها . انها زنوبة .. أمك .

– أيها المخادع المغرور .. تريد أن تأخذنى فى غمرة من الشفقة والعطف .. « وتكروتنى » فى الجسد .. وتأخذنى فى « دوكة » ... لن أهبط قبل أن أعرف التفاصيل بالضبط .

– أيها الفظ .. القاسى .. انها أمك .. وبالوالدين احسانا ! ؟

– ليست أمى .. ولا أعرفها .. حتى الآن . ان الصفقة بيننا لم تتم بعد .

– لم أر أصلب منك رأسا ولا أشد غباء .. أمامنا دقيقتان فقط قل ماذا تريد ؟ ! لعنة الله عليك .

– أريد أن أعرف أشياء كثيرة عن صاحبك الزعيم ابن زنوبة .. المولود فى شارع التلول .

– أولا كفى سخرية .. من اسم أمه وشارع مولده .. لقد قلت لك انه مفروض أن يكون زعيما شعبيا .. نشأ فى صميم الشعب .

– ليكن .. دعنا من مولده .. هذا شىء ممكن احتماله .. حدثنى عن تربيته ونشأته .. وطفولته وصباه .. وشبابه ، وأمواله ومتعاته .

– أحدثك عن كل هذا فى دقيقة ونصف ؟ ! كن عاقلا .. أرجوك .. أرجوك .. اهبط الآن وارحم المسكينة التى بح صوتها من الصراخ .

– ليس لى بالمسكينة شأن .. أنا غير مسئول عن الآم كل والدة لأننى لم أتسبب فى حملها .. السلام عليكم .

– السلام عليكم ؟ .. الى أين ؟ .

- الى فوق .

والزعيم ؟ .

- ليس لى به شأن .

- والاتفاق ؟ .

- ليس بيننا اتفاق .. انا حر يا أخى .

- اسمع .. قف .. كلمة واحدة .

- ماذا تريد ؟ .

- أرجوك .. المسألة ليست بمثل هذه السهولة .. ان بها مسئولية كبيرة .

- أى مسئولية ؟ .

- مسئولية ولادة الزعيم .. كيف تتركه هكذا فى بطن أمه ؟ .. دون أن تتقدم وتلتقطه قبل أن يسقط .

- ليسقط الزعيم فى بطن أمه .

- كيف ؟ .. انه زعيم .. انه مخلوق نادر .. لايمكن تركه ينفق هكذا بسهولة فى مولده .. ان له عملا فى التاريخ . أمة بأسرها تنتظره .. شعب كامل يتلهف عليه .. لو أنه مولود عادى . لتركناه يسقط .. ولكنه زعيم يجب أن يحيا .. يجب أن يحيا الزعيم .

- يحيا .. يحيا ... هذا ليس من شأنى ابحث له عن روح أخرى ، لست على استعداد للمغامرة بروحى مرة أخرى .

- ليس معى الآن أرواح سواك . لقد تركتنى أعتمد عليك اعتمادا كليا .. ثم جئت تخذلنى فى اللحظة الأخيرة ... بل تخذل أمة بأسرها ؟ .

– ما لى أنا وللأمة التى تتحدث عنها ؟ ! .

– انك تحاول حرمانها الزعيم الذى طالت لهفتها عليه وتاقت لرؤياه .

– لا عليك .. دعها وشأنها .. الزعماء بها كثيرون .

– كثيرون أيها الأحمق ؟ ! ان هذا زعيم حقا .

– زعيم حقا .. ماذا تعنى ؟ .

– ماذا أعنى ؟ .. لقد سبق أن قلت ماذا أعنى ؟ .. انى أعنى أنه زعيم ولد لكى يكون زعيما .. صنعته فى الحياة هكذا .. خلق لانقاذ هذه الأمة .. انه ألزم شىء الى هذا الشعب فى هذا الوقت .. انه الشىء الذى يفتقده الشعب .. فلا يجده... هل عرفت ماذا أعنى بالزعيم ؟ .

– تكلم .. تكلم .. الظاهر أنك تعنى شيئا آخر يختلف تمام الاختلاف عما طبع فى ذهنى .. قل ماذا تعنى بالزعيم أيضا ؟ !

– الزعيم الذى لا يريد أن يكون زعيما .. ولا يأبه أبدا أن يقول الناس عنه زعيم .. انه يؤمن بأن له رسالة يؤديها .. وهدفا يقصد اليه .. وأغراضا يسعى لتحقيقها .. وقد أهله الله لتأدية الرسالة .. وهيأه للوصول الى الهدف .. ولتحقيق الأغراض .. لقد وهب له من المواهب ما يجعله يؤدى رسالته بيسر واخلاص .. ويشعر من قرارة نفسه .. ومن طريقة خلقه .. ان ذلك هو عمله يؤديه بلا تكلف وبمهارة وثقة وبلا اعوجاج أو خلط .. كالموسيقى الموهوب أو الشاعر الملهم لا جهد فى عملهما ولا مشقة ولا تكلف .. بل يفعل عمله وهو يشعر أنه لا يستطيع أن يفعل سواه .. أفهمت ؟ .

– أجل .. كدت أفهم .. انه الأمنية الضائعة التى يفتقدها هذا الشعب

التعس .. انه الراعى الصالح الذى يفتقده هذا القطيع الضال .. انه النجم الهادى الذى يبحث عنه هذا الشعب الشارد فى بيداء التعاسة .

- لقد فهمت تماما .. انه القيم الذى يحتاج اليه القصر فى معشر أو غاد .. والوصى الذى ينشده اليتامى فى فيض من السفلة ... انه قطرة الماء التى تتلهف عليها الأمة اليتيمة الظمأى فى مأدبة اللئام .. انه الحجر الدافىء اللين الذى تريد أن تسند اليه رأسها بعد طول سهر وانهاك .

- عرفت يا أخى عرفت .. أنا نفسى كنت بفرط حاجتنا اليه عندما كنت حيا ، كنت أحس أن الشعب يريد أن يكون انسانا .. انسانا أهلا لحبه .. انسانا يبادله الحب والوفاء والاخلاص .. انسانا يلتف حوله ويهتف له .. ويمجده ويرفعه الى عنان السماء .. ويشعر فى قرارة نفسه .. ان هذا الانسان أهل لكل هذا ، وأنه يستطيع أن يسلم له قيادة ويترك له عنانه ويتبعه أينما سار .. ويفعل كل ما يأمره به . ان الشعوب جبلت على هذا .. على أن تتبع كل هاد خلق للهداية ، وتحب كل زعيم محبوب خلق للحب .

- وهل وجدتم هذا الزعيم الذى أعنيه ؟ .

- وجدناه ؟ . لو كنا وجدناه .. أفكانت حالنا قد صارت الى ما هى عليه ؟ ان سبب ما أصابنا ، هو أننا لم نجده .. هو أن الله لم يمن علينا به . لقد كنا اذا ما أصابتنا الملمة وراء الملمة ، والمصاب وراء المصاب ، نجلس نفكر فى الحل .. وآخرتها ؟ ما آخرة كل هذا ؟ . ما آخرة هذا الفساد الذى تسرب فى كل نواحى حياتنا ؟ ! ما آخرة هذا الانحطاط الذى بدا فى كل مظاهرنا وبواطننا ؟ . انحطاط وفساد فى كل فئة وفى كل ناحية .. انحطاط وفساد فى الفرد والمجموع .. فى الكبار والصغار .. فى التعليم والخلق والاقتصاد والسياسة .. لقد انهارت المثل

العليا ، وأضحت الأنانية والخسة والوضاعة والنفعية تسيطر على الأذهان والأعمال والتصرفات .. أضحى طابع كل عمل هو الفساد والتراخي والاهمال والفائدة الخاصة ، وكل انسان يتحدث عن هذا ويعترف بهذا وينغمس فى هذا . وبعد كل هذا يبحث بالكلام عن دواء للعلة وعلاج للداء .. لا حديث للناس .. الا كيف ننقذ هذا البلد ؟ ! وأى نوع من أنواع الحكم يصلحها .. الحكم البرلماني عاجز .. والانتخابات سخرية .. والحرية يساء استغلالها من جانب المحكومين ... والحكم العرفى يساء استغلاله من الحكام ... الشعب ردىء والحكام أردأ ... ما العمل ؟ من مجيرنا من هذا التدهور ... ومن منقذنا من هذه المرارة ، من مجيرنا من هذا التاجر المستغل والبائع السارق وصاحب الأرض النهم الشره ؟ ! ومن مجير هؤلاء من العامل الكسلان عديم الخلق ؟ ! من مجير الطالب من المعلم الجاهل ، والمعلم الجاهل من الطالب السافل الذى لا يحترم معلما ، ولا ناظرا ؟ ! من ، ومن ، ومن ، ومن ، وأخيرا يتركز الجواب في كلمة واحدة .. زعيم صالح .. يجير البلد من نفسها ومن أشرارها وتجارها وسفلتها من محكومين وحكام ، أجل ان كل حل مآله الى زعيم يأخذ بيد هذا البلد فيقيله من عثرته ويرفعه من كبوته .. زعيم حق .. زعيم بالفطرة .. وليس زعيما .. بالتوريط .

– زعيما بالتوريط . ماذا تعنى ؟ .

– أجل .. ورطته الظروف .. مات سلفه فوجد نفسه قد تورط مكانه وورث زعامته .. أغمض عينيه ثم فتحها فاذا هو زعيم .. واذا الناس من حوله يدعونه زعيما ، ولم يملك هو الا أن يوافقهم على ذلك .

– وماذا حدث له ؟ .

– حدث له ما حدثتك عنه سابقا .. مما يحدث لكل جسد لا يلائم

روحه .. ارتباك .. وخلط .. وسخريات .. هو فى ناحية والزعامة فى الناحية الأخرى ، ومع ذلك يأبى الناس الا أن يربطوا أحدهما بالآخر .. هو رجل عادى يحب ما يحب الرجل العادى ويفعل ما يفعله الرجل العادى ، والذى اذا ما فعله بوصفه رجلا عاديا يصير أمرا عاديا لا غبار عليه .. ولكنه عندما يصدر منه ، وهو متورط فى الزعامة يضحى أمرا غريبا مضحكا ، ومخذلا مشينا .. وهكذا يذهب الزعماء بالتوريط ضحية مورطيهم فى الزعامة ، ويظل الشعب يعدو وراءهم حائرا .. يضحك تارة ، ويجد تارة .. كما يعدو الصبية خلف المجاذيب والمخابيل .. ثم ينتهى به الأمر الى أن يفقد ثقته بالزعامة وبالمثل العليا .. وبالقيم الطيبة .. ويفقد ثقته بكل شيء ويروح تائها ضالا .. خابطا فى الفساد والانحطاط والسفالة .. وبين آونة وأخرى عندما يحس بفرط الانهاك والتعب .. يصيح صيحة غريق أوشك على الهلاك : أما من زعيم ؟ ! أما من منقذ ؟ ! ثم تذهب صيحاته مع الرياح ... دون سميع ولا مجيب .

ليحمد الله اذاً ! .

- علام ؟ .

- لن تطول صيحاته أكثر من ذلك .. لن تطول استغاثته .. فعما قريب يجد السميع المجيب .

- متى ؟ !

- عندم تأذن .. عندما تسمع وتهبط هذا الجسد الذى ينتظر .. عندما تدفع الحياة فى الزعيم المنتظر .. الزعيم بالفطرة .. لا بالتوريط .

- ولكن من قال لك انى سأسمح بالهبوط ؟ .

– من قال لى ؟ .. بعد كل تلك المحاضرة .. عن حاجة الشعب الى منقذ والى زعيم ... تأبى الهبوط ؟ ! .

– ومالى أنا والشعب .. لينقذه غيرى ! ! .

– أيها الأنانى ؟ .

– لا داعى للشتائم .. انى لا أحس بدافع قوى لانقاذه لقد أخذت دورى فى التعاسة .

– يا أخى أرجوك ! ! كف عن هذا العناد ! .

– ما زلت مصرا على رأيى .. اشرح لى تفاصيل حياة الزعيم الجديد .. حياة الزعيم بالفطرة هذه .

– ألا يكفيك أن تكون منقذا لشعب ؟ ! .

– لا يهمنى الشعب كثيرا .. أنا أعرفه خيرا منك ... منك المهم انقاذ نفسى أولا .

– نفسك أولا ؟ ! .

– أجل .. ليس لدى مانع من انقاذه ، ولكن ليس على حساب شقائى وتعاستى .. اشرح لى حياتى أولا حتى أكون – كما قلت لك – على بينة .

– ولكن .. لقد انتهى الوقت .. لقد أضعنا كل ما تبقى لنا فى محاضرتك عن الزعيم الأصلى والزعيم المتورط .. هيا أرجوك .. اهبط الآن .. ثم نتفاهم بعد ذلك .

– بعد ذلك ؟ ! ماذا تظننى ! أبله ... أم حمارا ؟ ! لن أهبط الا بعد أن أقتنع بحياتى القادمة تمام الاقتناع .

– الوقت أزف .. انتهى .

– لا يهمنى .

– ولكن ما العمل ؟ ! أندع الزعيم هكذا .. معلقا على باب الحياة ؟ ! .

– هذا ليس من شأنى .

– الزعيم ! ! الزعيم الذى يحتاج اليه الشعب .. وتتلهف عليه الأمة .. الزعيم الذى تتعلق بحياته الملايين .. نتركه هكذا يموت « فطيس » ؟ ! .

– ولماذا نتركه يموت « فطيس » ؟ ! .

– لأن موعد ولادته حل .

– أجلها .

– أجلها ؟ ! كيف ؟ .

– كما يؤجل كل شىء .

– لا ... لا ... ان مواعيدنا تتم بالدقيقة والثانية .. ثم ان هذه ليست ولادة شخص عادى .. انها ولادة زعيم . من المستحيل تأخير نزوله .. ان حياته ملك الشعب .

– يا سيدى .. نصف ساعة .. أو ساعة .. لن تؤثر كثيرا فى الشعب .

- وماذا ستفعل خلال هذه الساعة أو نصف الساعة ؟

- تقص على تفاصيل الحياة .. حسناتها وسيئاتها .. تعاستها وسعادتها .. آلامها ولذاتها .

- وبعد ذلك ؟ .

- أوازن أنا .

- وبعد أن توازن ؟ .

- أختار .. الهبوط فى بطن زنوبة ، ويدى عيوشة . أو الصعود على ظهر السحب بين يدى الله .

- وهذه المسكينة التى تكاد تهلك صراخا ؟ .

- دعها تنام حتى نتفاوض ونتفق .

- حسنا .. سأسير معك حتى النهاية .. ماذا تريد أن تعرف ؟ !

- قل لى أولا .. ماذا سيحدث لى عندما أهبط الى جسد الوليد ؟

- ماذا سيحدث لك ؟ ! أهذا سؤال ؟ .

- أجبنى .. ان مهمتك هى الأجابة .

- سيحدث لك ما يحدث لكل وليد .

- أتعنى أننى سأصبح وليدا ؟ .

- بالطبع .

- وأرضع ؟ .

- طبعا .. ماذا تظنك تفعل .. تأكل كباب ؟ ! .

- أنا أرضع ؟ ! ألقم ثدى الست زنوبة هكذا عاريا بلا خجل ولا حياء ؟.

- وعلام الخجل والحياء ؟ ! انها أمك .

- وسأصرخ هكذا وأفعل كما يفعل كل الأطفال ؟ .

- طبعا .

- يا للخجل والكسوف ! ! .

- أرجوك ...

- وسيهزوننى حتى أنام ؟

- اسمع .. اذا كنت تنوى اضاعة الوقت فى مثل هذه الأسئلة السخيفة فلن أجيب عليك .. قلت لك انك ستكون وليدا .

- ولكنى أعرف أنى سأكون زعيما !

- ستكون وليدا قبل أن تكون زعيما .

- أليس هناك ميزة للوليد الزعيم ؟ .

- لا .. الوليد الزعيم .. يتساوى مع الوليد غير الزعيم .

- لا بأس .. أستطيع أن أحتمل فترة الطفولة الطويلة بأى حَال .. ولكن ...

- لكن ماذا ؟ .

- هل سأستطيع التحدث ؟ !

- كيف تستطيع التحدث .. ان مواهبك وقدرتك ستكون محدودة

بالجسد الذى ستحل فيه .. فكيف تتحدث بلسان الوايد .. الذى لا يستطيع الا الوأوأة ؟ .

– وكيف اذا سأتفاهم معك .. اذا ما احتجت اليك ، أو أردت ارشادى ؟ .

– معى أنا تستطيع التفاهم كما تشاء .. سأهبط اليك كلما سنحت الفرصة .. فرصة موت أو ولادة . أو فرصة فراغ أقضيها معك .

– وكيف استطيع التفاهم معك ، وأنا – على حد قولك – لا أعرف سوى الوأوأة ؟ ! هل تجيد أنت فهم الوأوأة ؟ .

– عندما تتفاهم معى .. ستتفاهم بروحك .. وعندما تتعامل مع البشر ستتعامل فى حدود جسدك وفى حدود قدرته .. هل علمت ذلك ؟ .. مفهوم ؟ .

– مفهوم .

– هل لديك ما تود الاستفسار عنه بعد ذلك ؟

– طبعا لدى الكثير . اننا لم نزل بعد فى البداية .

– سل وانته بسرعة .

– عرفنا أن زعامتى ستكون فى ولادتها وطفولتها كبقية خلق الله الذين لايتمتعون بالزعامة .. وقبلنا هذا .. ما دام لابد من قبوله .. ماذا عن الطور الذى يليه .. طور الصبا والتلمذة ؟ .

– ماذا تريد أن تعرف عنه ؟

– أريد أن أعرف بعض التفاصيل عن حياتى فى هذا الطور ...

وبعض المزايا التى سأتمتع بها ... والخوارق التى تظهر على يدى .

– خوارق ؟ .

– أجل .. بعض خوارق النجابة ، ومعجزات النبوغ التى سأتمتع بها بوصفى زعيما صغيرا ، والتى ستكشف عن بداية الزعامة .

– اسمع يا أخى .. الظاهر نك حسن النية بعض الشىء ، ولكن لكيلا تضيع الوقت فى الأخذ والعطاء ، أقول لك باختصار انك ستكون فى هذا الطور مخلوقا طبيعيا جدا ، بلا خوارق ولا معجزات ... ستكون مجرد تلميذ عادى بلا مخائل نبوغ ولا امارات عبقرية ، مفهوم ! تلميذ عادى جدا ، أو أقل من العادى .

– هكذا ! ! الظاهر أنك أنت الحسن النية ، زعيم لايبدى فى التلمذة أى ضرب من ضروب النجابة والنبوغ ، ولا تبدو منه خوارق ولا معجزات ؟ الظاهر أن زعيمك هذا من نوع زعمائنا ، الزعماء بالتوريط .

– بل زعيم مطبوع مخلوق للزعامة .

– وليس عليه مخائل نبوغ ، ولا نجابة ؟

– أجل .

– ولا يقفز مثلا ثلاث سنوات دراسية فى سنة واحدة ؟

– لا .. لا .. ليس له فى القفز أبدا ، هو لايعرف هذه الأعمال الطرزانية البهلوانية .

– ولا يكون مثلا الأول فى كل امتحان يتقدم اليه ؟ .

– أبدا .. مرة يكون الأول ، وعدة مرات يكون فى المنتصف ، وقد يرسب مرة وينجح فى الملحق مرة ، تلميذ عادى جدا .

– ما هذا ؟ ! هذا زعيم هزوٌ جدا . الزعماء على الأقل يكونون دائما فى دراستهم الأوائل ، ويحكى حكايات عن نبوغهم ونجابتهم فى صغرهم .

– على أية حال .. اطمئن .. عندما يصبح زعيما سيحكى عنه ما حكى عن بقية الزعماء ، وسيلصق به الكثير من المفتريات عن وقائع نجابته ، وسيخترع عنه ما لم يفكر أنّ يفعله .

– هكذا ؟ !

– أجل ... أجل ... كل هذه أشياء ستنسب الى شخصه فيما بعد .

– اذاً سأكون برغم زعامتى ، تلميذا عاديا ، متوسط الذكاء ؟

– بل قليله ، أعنى قد تكون غبيا ، لا تحزن ، ولا تبتئس .. العبرة بالنهاية .

– نهاية ؟ ! نهاية الشؤم ، ما علينا ، لنتجاوز عن هذه الرحلة المخزية ، ماذا بعد ذلك ، ماذا سأفعل بعد هذا ؟ ماذا سأفعل بعد أخذ البكالوريا ؟ .

– اسمها الآن التوجيهية .

– لا بأس .. سمها ما شئت ، ماذا سأفعل ؟ أى نوع من المهن سأكون ، قائدا عسكريا أم محاميا مفوها وخطيبا سياسيا ؟

– لا هذا ، ولا ذاك .

– ماذا ؟ ! الزعماء عادة يكونون أما من رجال الجيش واما من رجال القانون ، ومعظم الزعماء عندنا خاصة كانوا من رجال القانون .

– قلت لك لا هذا ولا ذاك .

– ربما تقصد أن أكون أديبا من فطاحل الأدباء الذين يقودون الرأى العام بقلمهم ؟ .

– ولا ذاك أيضا .

– حيرتنى حيرك الله ، ماذا يا ترى ؟ تذكرت . أجل .. أيها الخبيث ، لابد أنى سأكون طبيب أطفال .

– ولا هذا .

– اذن أين سأذهب بعد البكالوريا ؟ .

– لن تذهب ، لأنك لن تأخذ البكالوريا .

– لن آخذ البكالوريا ؟ ما شاء الله . الظاهر أن زعيمك هذا سيكون من زعماء القمصان الزرق .

– ومن يكون هؤلاء ؟ .

– جماعات كانت تعسكر فى خربات القاهرة ، وكانت تسكن خياما كخيام عمال الشوارع أو التنظيم .

– لا ، لا ، حاشا لله .. ان زعيمنا رجل عاقل محترم .

– كيف يكون كذلك ، وهو سيسقط فى الامتحان حتى يطرد ؟ .

– من قال هذا ؟

– ألم تقل انه لن يحصل على البكالوريا ؟ .

– أجل قلت ذلك .. ولكنى لم أقل انه سيسقط حتى يطرد .

– أذاً ما السبب فى عدم أخذه البكالوريا ؟

– وفاة أبيه وعجزه عن دفع المصروفات واضطراره الى التوظف ببضعة جنيهات كى يعول أمه وخمسة من الاخوة زغب الحواصل .

– ما شاء الله ! ! أما حياة ! ! اسمع .. قل الحق .. هل سلطك على أحد ؟ .

– سلطنى عليك أحد ؟ ماذا تعنى ؟

– اعنى انه ربما كان لى بعض الأعداء .. يريدون النكاية بى وارجاعى الى الدنيا وأنهم استغلوك لخديعتى والتغرير بى !

– أية خديعة وأى تغرير ؟ ! أنا مغرر خداع ؟ .

– العفو .. تعرض على حياة زعيم .. ثم يظهر أنه سيكون كاتبا بلا اتمام التعليم الثانوى .. لينفق على أمه وخمسة من أخواته .. ما شاء الله .. وزعيمك هذا سيكون له وقت لشواغل الزعامة ، بعد اطعام أمه وتربية زغب الحواصل ؟ .

– شواغل الزعامة ؟ .

– أجل ! شواغل الزعامة .. أليس زعيما ؟ ! متى تنوى مخائل الزعامة فى الظهور ؟ متى ينوى صنع المعجزات ؟

– ما زال الوقت مبكرا على الزعامة .. انه فى هذه الفترة سيكون منهمكا فى حياته المضنية ، مشغولا بفقره وتعاسته وحرمانه .. يحاول

أن يفعل المعجزة الطبيعية التى يفعلها بقية الشعب ، وهى اطعام الخمسة أطفال وأمهم وايواؤهم وقضاء حوائجهم ببضعة الجنيهات التى يتناولها أول الشهر .

- وهل تنجح المعجزة ؟

- الى حد ما ، يمكنه هو وبقية التعسين من البقاء على قيد الحياة ، وفى الوقت نفسه يمتلىء صدره بالمرارة ، وهو يجد نفسه سائرا فى قطيع ضال لا أهداف أمامه ولا قائد له .. يسير مطأطىء الرأس ، ذليل النفس ، مفعما باليأس والبؤس ، فيفكر كما فكر أفراد القطيع .. ما النهاية ؟ ما الآخرة ؟ وفى سكون الليل كان ينطلق فى تفكيره الملىء باليأس والتعاسة والبؤس .. ثم يسكت ، يسكت . وأخيرا يستطيع بعصارة ذهنه وخلاصة روحه وقلبه أن يكتب كتابا .. يسلمه الى أحد الناشرين فيقدم على نشره .

- فهمت .. قل هذا يا أخى من الأول .. كأن هذا الكتاب اذن بداية الزعامة ؟ .

- بل بداية السجن .

- ايه ؟ ماذا تقول ؟ .

- مالك تصرخ هكذا ؟ .. افزعتنى .. أقول لك بداية السجن .

- سجن ؟ ! أنا سأسجن ؟ ! لا .. لا .. حد الله بينى وبينك ، قلت لك من أول الأمر لا داعى للأخذ والعطاء . سجن .. فال الله ولا فالك .. بعد تلك الحياة الماضية التى لم أدخل فيها قسم بوليس تريد أن تدخلنى السجن ، تقول لى انى زعيم .. لا .. لا يا عم .. السلام عليكم .

– يا أخى اصبر .. ما هذه الضجة التى أحدثتها .. لقد كدت توقظ أمك .

– أمى ؟ .

– أجل ! أمك زنوبية .

– قلت لك .. لا داعى لأن تقول انها أمى ، لأنى لم أقبل أمومتها بعد وان قبلت فان أول شرط سأشترطه عليها عندما أستطيع النطق هو أن تغير اسمها .. باسم محترم بعض الشىء ، أو على الأقل تكنى عنه بأى شىء آخر ، وليكن مثلا أم عبده .. ألم تقل ان اسمى عبد الحليم ؟ .

– أجل .. عبد الحليم أبو رابية .

– وأبو رابية هذا أيضا لا يعجبنى كثيرا .. كيف يهتف لى الناس .. لن يكون هتافهم رنانا موزونا .. ماذا سيقولون ؟ فليحيا أبو رابية .. نحن فداؤك يا أبا رابية .. نموت ويحيا أبو رابية ، لا ، لا ، هذا اسم لا يصلح للزعامة . على أية حال سأعرف كيف أتصرف فيه .

– تتصرف فيه ؟

– أجل ! ألن يصبح اسمى .. وأكون حر التصرف فيه ؟

– وماذا ستفعل به ؟ ! .

– سأقول ان نسب العائلة الكريمة لا صلة له بهذا الاسم من قريب، أو بعيد .

– أى عائلة كريمة ؟

– ألم تقل لى أنى عندما أصبح زعيما سيلصق بى الناس أشياء لا تمت لى بصلة ؟

– أجل .

– وسيكون منها أنى كريم الأصل محسَّب منسب ؟

– محتمل .

– اذاً فسأقول ان أبا رابية هذا اسم دخيل على العائلة المحسبة المنسبة وأطرده شر طردة .. وأسمى نفسى خورشيد أو شريف .. أو نوبار .. أو أى من هذه الأسماء الأصيلة .

– ولكن لا يمكنك فعل هذا .. اياك .

– ولم ؟

– لأنك أولا زعيم شعبى ولابد أن يكون اسمك شعبيا .

– وثانيا ؟

– لأن اسم أبى رابية هذا هو الذى سيخلد فى التاريخ سيصبح كنابليون وغاندى ومصطفى كمال .

– عبد الحليم أبو رابية ؟ ! لا أستطعمه أبدا ... لا عبد الحليم ولا أبو رابية .. على أية حال .. ليس هذا وقته .. يحلها ربنا فى المستقبل .. ماذا كنا نقول ؟ ! أجل .. كنا نتحدث عن أنك تنوى ادخالى فى السجن .

– أنا لا أنوى شيئا . وليس لى بك شأن .

– من اذن الحمار الذى سيدخلنى السجن ؟

- أنت .. أنت وحدك الذى ستزج بنفسك الى السجن .

- اذا كان الأمر لى وحدى فاطمئن .. أنا رجل مسالم ولن أدخل السجن أبدا .

- ستدخله كعبد الحليم أبو رابية .. وليس كنفسك أنت .

والله ... كعبد الحليم أبو رابيه .. أعتقد أنه قد يصلح مسجونا عاديا .. ولكن ليس زعيما مسجونا .

- سيكون سجنك بداية الزعامة .

- يا له من ثمن باهظ .. من أجل الزعامة .. ولكن لا بأس .. إذا لم يكن من السجن بد .. فلا مفر من احتماله ما دام سنتهى بى الى هذه الزعامة .. كم سنة سأمكث فى السجن ؟

- أربع سنوات .

- أربع ايه ؟

- سنوات .

- أربع سنوات مرة واحدة .. تريدنى أن أقضى فى السجن أربع سنوات ؟ .

- ماذا كنت تظن اذن ؟ .

- شهرا .. شهرين .. ثلاثة أشهر .. أربعة أشهر بالكثير جدا ... لا .. لا ... اعفنى وحياة والدك .. دعنى أعود .. أنا لم أتعود هذه المهانة .. لست وجه مسجون .

- يا أخى كن عاقلا .. ستمر السنوات الأربع كأنها أشهر أربعة ..

كل شيء يمر كلمح البصر .. ألم تر حياتك السابقة كغمض العين :

– أى والله .. مرت وكأنها لم تمر ، وكأنى ما زلت ألعب فى جوار جنينة ناميش .

– ألم أقل لك كله يمر .. حتى أربع سنين فى السجن ؟

– ولكن كيف سأقضيها ؟ ! كيف سأبدو فى لباس السجن والرأس الحليق .

– ستبدو كبقية المسجونين .

– كيف ؟ لا لابد أن أظل محتفظا ببعض الوجاهة التى تميزنى عن بقية المسجونين .

– وجاهة ؟ ! ومن أين لك هذا ؟

– الوجاهة الأصلية التى ستكون عليها خلقتى .

– من قال لك انك ستكون وجيها ؟

– لن أكون وجيها ؟

– بالمرة .

– لا .. لا .. ليست هذه هى الزعامة المطلوبة .. هذه زعامة فاشلة جدا .. لقد كنت أعد نفشى وجيها وأنا مجرد صعلوك فى حياتى السابقة .. فما بالك وأنا زعيم ؟

– ستكون عاديا جدا ... ستكون على نفس القبح الذى عليه بقية شعبك الكريم .

– كنت أفضل أن أكون زعيما وسيما .

- قسمتك .

- ولكن ...

- ولكن ، ماذا ؟

- كيف يكون حالى مع النساء ؟ أعنى ما مدى نجاحى فى ميادين الغرام ، وأنا لا أملك شيئا من الوجاهة ؟

- اطمئن .

- كيف ؟ .

- لن يكون لك أية صله بهذا الميدان .

- ماذا تقصد ؟ .

- أقصد ، أنه لن يكون لك فى النساء .

- يا نهارك أسود .

- مالك ؟

- ليس لى فى النساء ؟

- أجل .

- عد بى الى السماء .. عد .. هيا .. لا داعى للمناقشة . اليك زعيمك ، اشبع به ، لست فى حاجة اليه أبدا .

- لم كل هذا .

- حياة بلا نساء ، يعنى حياة فارغة ، يعنى لا حياة ، أرجوك عد بى الى السماء ، على الأقل هناك أمل فى الحوريات .

– حوريات ، لك أنت ؟ ! ! الحوريات فى الجنة ، وأنت لن تبصر الجنة بعينيك .

– اذا لم تكن حوريات الجنة ، فغانيات الجحيم ، وانى لأراهن خيرا وأفضل ، فهن أسهل منالا وأخف دما ، ولا شك أن الجحيم سيعج بهن .. عد بى الى السماء .. عد .. لعن الله حياة زعيمك الفارغة .

– فارغة ! من قال انها فارغة ؟

– ماذا يمنعه ويدفع الحمية فى رأسه والنشوة فى قلبه؟ أى حياة أفرغ من حياة انسان ، ليس له فى النساء ؟

– لن يكون فى حياتك فراغ يفكر فيه فى النساء .. ان كل حياته مشغول بالعمل من أجل وطنه والتفكير فى انقاذ شعبه .

– وهكذا ! !

– أجل ، هكذا . ان هذا من فضل الله عليه ، ما جعل الله لامرىء من قلبين فى جوفه ، وقلبه هو ملىء بأمته لا يشاركها فيه أحد ، انه زعيم مثالى .. كل مشاعره وأحاسيسه وجهوده وتفكيره من أجل قومه .

– اذاً فلن يحس بأنه محروم شيئا ؟

– أبدا .

– ولن يتطلع الى الغيد تطلع العاجز المحروم ؟

– أبدا ، أبدا ، لن يشعر بحاجته اليهن قط ، لن يشغلن ذرة واحدة من تفكيره ، ولن يكون لهن عليه سيطرة ولا توجيه .

– هذه والله مسألة تستحق اعادة النظر . تقول انهن لن يكن بذوات تأثير عليه ؟

– أجل .. سينظر اليهن نظرة المستغنى المرتوى .

– ولن تضعف ارادته أمامهن ؟

– أبدا .

– ولن يؤثرن عليه بعيونهن أو شفاههن أو نهودهن أو أردافهن ؟

– مطلقا .

– يا سلام . هذا والله واق عجيب من مصدر كبير للتعاسة ... أنا أعرفهن جيدا .. سلنى أنا عنهن ، انهن حقا ممتعات ولكن ليس وراءهن غير المصائب والبلايا ، بقدر ما يهبن لك متعة يرددنها لك ألما .. اسمع .

– نعم .

– موافق على هذه الناحية ، هذا الجانب من الزعامة مقبول ومعقول ، فما حطم الزعماء كالنساء ، ولا سيما محدثات الزعامة منهن ، وزعيمنا هذا لاشك ناجح ما دام له من النساء واق ، أو ما دام زعيم مضاد للنساء ، يحب ابعاد النساء ما أمكن عن الحكم والسلطان ... فهن مهما تلقين من الثقافة والعلم قليلات عقل ، سخيفات تفكير ، سيئات تدبير ، ورحم الله أجدادنا عندما كانوا لا يستعملوهن الا رفيقات فراش ، خادمات دور ، مربيات بنين وبنات ، ذلك هو دورهن الذى يجب ألا يتجاوزنه . على أية حال لا داعى للحديث عنهن الآن ، فما عاد لى ببهن شأن ما دمت أوشك أن أحل فى جسد زعيمك .

– اتفقنا اذاً ، ستهبط فى جسده ؟

– انتظر .

– أنتظر ماذا ؟

– لم أسمع بقية المعلومات .

– أسأل أرجوك ، ودعنا ننته .

– عرفنا عن زعيمك ، القليل الأصل ....

– قليل الأصل ؟ . ما هذه الوقاحة ؟ !

– أليس قليل الأصل ؟ . ابن زنوبة وأبو رابية وليد شارع التلول بالسيدة ، وقبيح الشكل ، وربيب سجون ، وليس بعد كل هذا قليل الأصل ... لاتغضب ، سأسميه رفيع المقام من شارع التلول .

– كفى سخرية ، وادخل فى الموضوع .

– كنا نقول عن زعيمك عبد الحليم انه دخل السجن بعد أن ألف الكتاب المنحوس المعروف . وأنه ليس له فى النساء ، ماذا سيفعل بعد ذلك ؟ !

– سيقضى مدة السجن فى القراءة والدراسة .. وسيعرف كل شىء عن نظم الحكم وتطوره ، وعن حركات الانقلاب ، وتواريخ الزعماء ، وأسباب انهيار الأمم وعلل فسادها ووسائل علاجها وتطور نهضتها .

– كل هذا يقرؤه فى السجن ؟ !

– أجل .

– وبعد ذلك ؟ .

- يخرج من السجن ، ونفسه مليئة بالسخط والمرارة وذهنه مليء بالمشروعات الضخمة وجلائل الأعمال ، وقد خرج من كل ما لاقى وأحس وجرب ، بفكرة واحدة هى أن هذا البلد بلغ من الانهيار نهايته ، وأن شيئا ما لابد أن يحددث ، انفجارا ، أو تحولا ، أو انقلابا ، وأن كل ما قرأه من تواريخ الأمم ، والزعماء ، ينبيء أنها بلغت حدا يجعلها فى انتظار حادث جلل .

- مفهوم ، مفهوم ، هذا شيء كنا كلنا نردده ، لم يأت هو بشيء من عنده .

- انتظر يا أخى لا تتسرع .

- انتظرت ، قل ماذا سيفعل بسلامته ؟ .

- يجد أن الأمة فى انتظار حادث جلل ، وهذا الحادث الجلل الذى سيغير حالها اما أن يكون فى صورة ثورة عاتية عارمة تأتى على الحرث والنسل وتودى بالأخضر واليابس وتسلم مقاليد الأمة من كبار فجارها ، الى صغار أشرارها ، وتقذف بها وراء المدنية مئات الأعوام ، وتنتقل عمليات السرقة والسلب والنهب من اللصوص المتخومين الذين شبعوا الى اللصوص المحرومين الذين لم يشبعوا وتتقاذف الأمة الأنواء بين الجهال الطامعين ، ونصبح كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .

- هذا أمر .

- والأمر الثانى ، هو أن تبدأ بها حركة اصلاح قوية راسخة متينة ، تمسك البلد من أسفله .

- ماذا تعنى بأسفله ؟

– تصلح الشعب نفسه .

– والحكام ؟

– قلت ان هذا النعل من ذاك ، وهؤلاء الحكام من هذا الشعب ، فاذا صلح صلحوا ، واذا لم يصلحوا ركلهم الشعب بطرف حذائه بعد أن كانوا يدوسون على عنقه بأحذيتهم .

– اذاً فصاحبك الزعيم سيبدأ باصلاح الأمة من أسفل ؟

– أجل .

– ما شاء الله ، مت يا حمار حتى يجيء لك العليق .

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أن صاحبنا لن يتمتع بزعامته قط فى حياته ، ولن يرى لها أثرا ، فاصلاح حال هذا الشعب عملية تحتاج الى أجيال وأجيال .

– أبدا ، أبدا .. انه سيبدأ بها على نطاق ضيق ، يجمع حوله بضعة أفراد ويرشدهم الى تعاليمه المخلصة الأمينة ، ويبث فيهم دعوته الصالحة الطيبة .

– كما يفعل الأنبياء ؟ .

– شيء أشبه بذلك .

– وهل سيصدقه الناس ويؤمنون برسالته ؟

– هنا تظهر قيمة الزعيم ، وطريقة خلقه ، وقدرته المطبوعة .. ان ايمان الناس وعدم ايمانهم ، يتوقف على أصالة الزعيم وعدم أصالته .. أخلقه الله زعيما ، أم هو مدعى زعامة ؟

- اذاً فسيؤمن الناس بدعوته الى الصلاح والجد والاستقامة والعمل الصالح .

- ايمانا قويا ، سريعا ، وسترى دعوته مسرى النار فى الهشيم .

- أنت تذكرنى برجل كانت له نفس البداية .. ولكن لم يستمر حتى النهاية ، لأنه تحول وتعجل وتسرع .

- لا، لا ، زعيمنا هذا ليس له شبيه فى معشركم ، انه نسيج وحده ، انه زعيم حقا . ان دعوته ستتعدى نطاقها الضيق الى محيط أوسع ويلتف حوله الناس زرافات ووحدانا فيأخذ فى تنظيم حركته ويبدأ الاصلاح من أسفل ... اصلاح الجموع والجماهير .. ويبث فيمن حوله أن يبتدئوا بأنفسهم وأن يصلح كل تابع له نفسه أولا ويطهرها قبل أن يطالب بتطهير غيره أو المجموع ويغرس فى قلوبهم الايمان بالله وبالوطن وبه ، ويدفعهم الى الاخلاص فى عملهم مهما حقر وضؤل ، وفى فترة وجيزة يصبح مسموع الكلمة نافذ الرأى .

- وماذا بعد ذلك ؟ ! ماذا يفعل به الحكام والمسئولون وماذا يكون موقفهم ازاءه ؟

- يتخوفون منه .. ويخشون تضخمه .. ويأخذون فى محاربته ، ويبدأ النضال بين أنصاره والحكام .

- وينتصر الحكام طبعا ؟ !

- لا . بل ينتصر أنصاره . ويقفزون به الى منصة الحكم .

- مرحى .. هذا شىء طيب ، شىء يشجع على القبول ستعوض أبهة الحكم ومتعة السلطان .. مذلة السجن وآلام الحرمان .. حدثنى عما

يفعل وهو فى منصة الحكم ، كيف يتمتع بزعامته ؟ حدثنى عن ثرائه ومواكبه وعن الحراس والخدم والحشم ؟ حدثنى عن وسائل الرفاهية والنعمة وعن العز والجاه ؟

– لن يتمتع بها قط .

– لم ؟

– سيختلف مع العصبة من أنصاره التى اعتلت معه منصة الحكم .

– زعيم أحمق .. ليس له فى الطيب نصيب .. ولم الاختلاف ؟

– سيجد أنهم قد تحولوا بمجرد الوصول الى منصة الحكم . فأضحوا كسابقيهم ، ويبهرهم السلطان فأنساهم مبادئهم ، وشرعوا يفعلون ما نهوا عنه واستبد بهم الكبر والغرور ، فتنحى عنهم وعن الحكم .

– ويعود الى الشارع ؟

– بل الى السجن .

– سجن ؟

– أجل .

ويضعه أنصاره فى السجن .. اذ يدركون مدى خطره عليهم .. ويخشون ان هم تركوه طليقا أن يزلزل مقاعد الحكم بهم وألا يمكنهم من التمتع بما تمتع به سابقوهم من استغلال النفوذ والانتشاء بأبهة السلطان والتمتع بمنافعه .

– وماذا يفعل صاحبك خدن السجون ، ورب السوابق ؟

– يودع غياهب السجن .

- وماذا يفعل فى غياهب السجن ؟ ! يعود طبعا الى القراءة والتحصيل والدرس ؟ ة

- لا .. لن تسنح له الفرصة لذلك .

- ولم ؟ ! لعلهم سيشنقونه ! !

- لا .. يثور الشعب من أجله .. وينزل عصبة الطغاة من مقاعد الحكم ويفتك بهم ثم يرفعه من غياهب السجن ويضعه على قمة الحكم .

- لم يكن يصلح معه الا هذا .. فهو ليس وجه نعمة .. لابد من وضعه بالقوة على منصة الحكم .. حتى يتمتع بأبهة الزعامة ولو بالاكراه .. حدثنى - أرجوك - بالتفصيل عن أيامه فى الحكم .. حدثنى . وتمهل فى حديثك ، كيف يبدو ؟ وماذا يفعل ؟ وماذا يقول عنه الناس ... حدثنى بامعان واسهاب عن متعته بالسلطان .

- ليس هناك ما يستدعى الاسهاب والامعان .

- كيف ؟ !

- لانه لن ير السلطان بعبنيه .

- لماذا ؟ !

- سيرفض .

- لمه ؟

- ألم أقل لك .. انه ليس له فى الطيب نصيب ؟ ! ألم أقل لك انه ليس وجه نعمة .. لماذا يرفض الحكم ؟ ! اذا كان الشعب بنفسه قد وضعه فيه ؟

– سيصمم على أن يظل بمنأى عنه ... حتى لا ينغمس فى حمأته وأن يوجه الحكام دون أن يحكم بل يقف للارشاد والاصلاح والتوجيه ... وأن يزهد فى كل شيء ، وأن يرفض كل أبهة ومتعة ونعمة ، وأن يكون للشعب زعيما روحيا يقوده الى حياة قريرة سعيدة .

– زعيم روحى ؟ ! طلعت روحه ، وماذا يفيد هو من هذا ؟ ! لاتقل .. راحة الضمير .. وهدوء البال وتقدير الناس وانصاف الشعب .. وحسن الختام .

– لن أقول لك بالطبع شيئا من هذا ..

– ولمه ؟

– لأنه .. لأن ...

– ماذا ؟ . قل !

– لأن .. مسألة التقدير والانصاف وحسن الختام هذه .. أظنها أمورا مشكوكا فيها !

– كيف ؟ !

– لن يعدم نفرا من المخابيل ومخالفيه فى الرأى يقومون باغتياله وقتله بتهمة الخيانة .

– خيانة ؟

– أجل ، هذا رأيهم .

– مدهش ! !

– والآن بعد أن شرحت لك كل التفاصيل ما رأيك ، أتنزل الآن ؟ ! لقد مضى الوقت وزنوبة تكاد تستيقظ ! !

– .....

– لماذا لا تجيب .

– ...

– أين أنت ؟ يا أخا . يا سيدنا ، أين ذهبت ؟ ! الى أين تعدو ! ؟

– ... الى فوق .. الى السماء بلا رجعة .

– وهذا الشعب المنتظر ؟ !

– ابحث له عن مغفل غيرى ، يرضى أن يكون زعيما له .

(أنا أعدو فى السماء .. وعزرائيل يطاردنى ، وزنوبة تعاود صراخها ، والشعب التعس ما زال فى انتظار الزعيم) .

● ● ●

البحث
عن
جسد

الفصل الثالث المنظر الأول

(فى القصر الملكى - حجرة الملكة فى ساعة ميلاد ولى العهد . المدافع تطلق فى الخارج . والهرج والمرج وصيحات الفرح فى الداخل . الملكة مستلقاة على الفراش والملك يفرك يديه فرحا . أطباء يروحون وممرضات يغدون . ومن هذا كله أستقر أنا فى جسد ولى العهد الرضيع الملقى على فراش وثيز ترمقنى جميع العيون بالاجلال والاكبار ، وعزرائيل يجلس فوق قمة أحد « الدواليب » واضعا ساقا على ساق وقد أخذ يهز رأسه ويمط شفتيه) .

عزرائيل يبدأ الحديث :

- أخيرا .... أيها المخلوق المتعب استقر بك الحال بعد طول عدو وبحث وتمحيص واختيار ؟

- أجل .. أجل .. أدخل السجن مرة أخرى ؟

- لشد ما أرهقتنى .. لم يعجبك -كما يقولون - العجب ، وظللت

ترفض الجسد تلو الجسد .. حتى الزعيم فررت منه وأخذت تعدو هاربا منى فى السماء ... حتى اضطررت أخيرا أن أعرض عليك أقصى ما لدى .. وهداك الله أخيرا وقبلت أن تهبط معى فى جسد ولى العهد ... أراض أنت الآن ؟

– لا بأس .

– لا بأس ؟ ! أيها الطماع الناكر للجميل .. أرقدك هذه الرقدة الملكية السامية .. أنت .. ربيب حارة الروم ، وجنينة ناميش .. أرقدك هذه الرقدة التى لم يكن يحلم بها أجدادك .. ثم تقول لى لا بأس .. أين كنت تريدنى أن أهبط بك .. الى جسد نبى ؟

– لا ... لا ... هذا أفضل .. انى لا قبل لى بحياة الأنبياء وجهادهم وتقشفهم وما يقاسونه فى سبيل نشر دعوتهم لقد رفضت حياة زعيمك ساكن التلول من أجل هذا .

– وهربت منى ودوختنى وراءك في السماء أيها الأحمق حتى لحقت بك وعرضت عليك حياة لا تجود بمثلها الا كل قرن .. حياة ملك مقبل ... وولى عهد مرموق .. حياة ليس بعدها على الأرض حياة .

– أتستطيع أن تعطينى فكرة سريعة عنها .

– ولمه ؟

– لكى يطمئن قلبى .

– يطمئن قلبك ؟ علام ؟

– على مستقبلى ؟ على حياتى الطويلة القادمة .

– الظاهر أنك لا تفهم وضعك جيدا .. أنت الآن ولى عهد .. أى ابن ملك ، وعندما يموت أبوك الملك ستصبح أنت الملك .

– ومتى يموت أبى ؟

– ملك تتعجل هكذا .. ما زال فى عمره بقية لتربيتك ورعايتك ... ثم ان حياتك وأنت ولى عهد ستكون حياة ناعمة هانئة فاخرة .

– خالية من كل جهاد ومشقة ؟

– جهاد ومشقة ؟ ! أمجنون أنت ؟ ! ليس فى حياتك أى نوع من المشقة .. ليس عليك لكى تعتلى العرش .... الا أن يموت أبوك ... حتى موت أبيك لن يكون لك فيه أى دخل ، ولن يكون لك به أى اختصاص .. انه من صميم اختصاصى ... كل شىء سيجىء لك « على الطبطاب » ليس عليك الا أن تنام فى فراشك ، وتكبر ، وتترك الأيام تمر بك ... حتى تصبح ملكا .. أرأيت شيئا أسهل من هذا ؟

– أبدا .. أبدا .. ولكن ما هذا .. انى أشعر بمغص فى معدتى .. ماذا أفعل ؟ هل عندك شىء يضيع المغص ؟

– عندى أنا .. ليس لى بك الآن أى دخل ، لقد انتهت مهمتى بمجرد انزالك فى الجسد ، واذا رأيتنى أجلس لأتحدث معك .. فهو من باب التسلى والسمر ليس غير .. ومن بابا التأكد من قيدك فى الجسد ، فأنا أعرفك « بنغزة » وقد لا يعجبك شىء فى حياتك الملكية ، فتعدو ورائى وتترك ولى العهد جثة هامدة ، والمفروض أن أتركك الآن بعد أن قيدتك فلا أعود اليك الا لأقبض روحك بعد عمر طويل ، ولكن يبدو لى أنه لابد من النزول اليك من آن لآخر ، اذ أخشى أن تفسد حياتك .. فروحك – فيما يظهر لى – لم تتعود السلطنة والامارة ، ولا شك أن

الفترة التى قضيتها فى ربوع السيدة ستؤثر عليك وتحاول أن تهبط بك من علياء الملكية ، وانى لأشعر أنى قد ارتكبت مغامرة كبيرة ، ولكن ما علينا .. لقد فعلتها ، وانتهى الأمر .. على أية حال .. اذا شعرت بحاجة الى ...

– أنا لا أشعر الآن الا بالمغص .. لقد بدأت متاعب الحياة .. كنت من قبل لا أشعر بهذه الآلام الأرضية الجسدية .. مغص .. زكام .. صداع .. وكنت أظن أن الأجساد الملكية لا تتأثر بمثل هذه الأشياء الشعبية .. ولكن أحس الآن بأمعائى تتلوى من الالم .. أرجوك .. اما أن ترفع الألم .. أو ترفع روحى من ذلك الجسد الضئيل الذى حشرتها فيه .. أرجوك .

– ما هذا الهذيان ؟ أرفع الألم .. أو أرفع روحك ؟ قلت لك انه لم يعد لى بك ولا بألمك ولا بروحك شأن ...

– وماذا أفعل بهذا المغص الذى يمزق أحشائى ؟

– اصرخ .

– أصرخ ؟ ! وما فائدة الصراخ ؟

– ان الصراخ هو كل ما تستطيع فعله الآن .. اذا أردت أى شىء فاصرخ أنت .. وعليهم الباقى .

– على من ؟ .

– على هذا الحشد من الخدم والحشم والممرضات والأطباء .. اذا شعرت بأى شىء .. جوع .. عطش .. ألم .. مغص .. بل اذا لم تشعر بشىء .. وأردت أن تتسلى ... فاصرخ .

– آه منك أيها الماكر الخبيث .. لقد بدأ يتكشف خداعك .

– خداعى ؟ .. أنا ! ! ... بعد كل هذا الذى وضعتك فيه .. تقول هذا .

– أجل .... ضحكت على .. وقلت لى ... ملك .. وولى عهد .. وجسدك السامى .. وحياتك الملكية .. ثم حشرتنى فى جسد لا يملك مدة عام سوى الصراخ .. عام كامل سأقضيه هكذا راقدا على ظهرى .. أخرس .. مقعدا .. كسيحا .. رقدة تساوى فيها ولى العهد .. مع ولى الله .. أى فارق بين رقدتى هنا ورقدتى منذ عشرات الأعوام فى حارة الروم ؟ ! كنت أصرخ هناك .. وأصرخ هنا ...

(أبدأ الصراخ فتقبل ممرضة أجنبية حسناء وتتحسسنى فى رفق وتفحص اللفائف التى لف بها جسدى الضئيل) .

– أرأيت الفارق ؟

– رأيته .

– كنت فيما مضى .. تصرخ . فتقبل عليك .. نجية . أو أم سيد .. وكان أقصى ما يفعل بك .. هو أن يهزوك هزتين .. أو يطبوك طبتين . أو يتركوك ... تصرخ .. حتى تنفلق .. أما الآن فلا يكاد يعلو صوتك السامى حتى يتكاكأ عليك .. حشد من الملائكة الأرضية .. لورا .. واليزابيث .. ومس مور ... ما رأيك فى هذه التى انحنت عليك ؟ .

– مدهشة .. صدرها عجيب .. اتظن رفعته هذه طبيعية .. أم مشدودة بالحمالات ؟

– حمالات ؟ .. انه مرفوع خلقة .. انه هو الذى يرفع الحمالات .

– عجيبة ؟ ! وطاقتا أنفها .. ما لهما ضيقتان هكذا .. انهما لا تكادان تدخلان الشهيق أو تخرجان الزفير .. أخشى عليها الاختناق .

– لا تخف عليها .. عليك نفسك .. كيف حال المغص عندك ؟

– (أعاود الصراخ .. فترتبك الممرضة .. ويحدث شيء من الهرج والمرج) .. ظهرها بديع .. رشيق جدا .. لا أكاد أبصر لها خصرا .. وكأنى بردفيها معلقان فى الهواء .. ما رأيك فى ردفيها ؟

– أتحب الأرداف ؟

– جدا .

– لعلك اذا راض الآن .. ولعلنى لم أخدعك ولم أغرر بك .

– (أعاود الصراخ) .. ولكن ما الفائدة ؟ ! ماذا أستطيع أن أفعل بأرداف الأرض قاطبة .. أو أرداف السماء .... وأنا بهذا الجسد الضئيل العاجز الممغوص ... الذى مهما بلغت قدرته ، واشتدت سطوته وصولته .. فلن يزيد ما يستطيع فعله .. عن الصراخ .. تصور .. ان أقصى ما أستطيع أن أفعله بصاحبتنا هذه .. هو أن أصرخ فيها .. لا غزل .. ولا قبل .. ولا ضم .. ولا لمس .. لا شيء غير الصراخ ... هى والمغص عندى سواء .. ما فائدتى بها .. وأنا ملقى هكذا فاقد كل قدرة على التعبير ... سوى الصراخ .. لا غمز .. ولا ضحك .. ولا هتاف « يا حلو » ؟ !

– لا تتعجل يا أخى . غدا تكبر وتنمو ، وتستطيع أن تباشر بجسدك ما تشاء من المتعات .

– غدا ! ! .. أنا أعرف ما سيأتى به الغد .... أنا أعرف ..

– ماذا تعرف ؟

– سيمضى عام ، وأنا ملقى هكذا كالكسيح بلا حراك .. الا الهز والحركة فى الأرجوحة . وعام آخر .. أحاول فيه السير .. وأستبدل بالوأوأة .. تهتهة .. وأنا مستمر فى حياتى على هامش الحياة .

– انى أقصد بغد .. أبعد من هذا .. عندما تبلغ مبلغ الشباب ... عندما ...

– أعرف .. أعرف .. ولكنى أريد أن أعرض لك .. كيف تتبدد الحياة العام تلو العام .. وأنا بين فاقد الاحساس بها أو محروم متعاتها أو غريق فى أحزانها ؟ .

– يا أخى كفى تشاؤما وتبرما .. ان حياتك المقبلة حياة أخرى .. ليس بها حرمان .. ولا أوجاع ولا أحزان .. كل مطلب سيكون ملء يديك .

– هراء ...

– ستكون ملكا ؟

– ولو .

– ماذا سيقف فى سبيل مطالبك ؟

– القيود .. والسدود .

– أية قيود وأية سدود ؟

– قيود التقاليد .. وسدود الأخلاق .. والآداب .

– ومالك ولها ؟

- لا تتغابى .. أنت أدرى بطبيعة الحياة التى أعدتنى اليها .. لا أكسبك الله ولا ربحك .

- أدرى بماذا أيها الوقح ... الذى لا ينفع فيه معروف ؟

- أدرى بالسدود الحائلة بين الانسان ورغباته .

- أتريد أن تهدم سدود الله وتطلق الانسان يعبث فى الأرض ؟

- لست أريد هذا .. انى أريد أن أهدم سدود البشر التى جعلت الانسان حبيس الحياة ... بدلا من تركه حرا طليقا .

- ماذا تقصد ؟ ! ما هذه النغمة الجديدة التى تتحدث بها ؟ ! أى تحرر وانطلاق هذا الذى تقصده ؟

- لا أريد من بشر أن يعين نفسه قيما على بشر.. وكل انسان مسئول عن نفسه وله أن يعمل ما يسعد به نفسه ما دام لا يشقى به غيره ... نحن جميعا نعرف أوامر السماء ، ونعرف المعصية وغير المعصية .. ونعرف كيف سنلقى الله وكيف سيلقانا الله .. وكل انسان يعرف أنه وحده سيتحمل وزر نفسه .. فما بال أولئك البشر لاينفكون يقيمون أنفسهم فى الحاح ولجاجة .. وسطاء بيننا وبين السماء .. يقيمون الحوائل والسدود ليزيدوا الأرض تعقيدا .

- لابد من نظم للبشر لحماية بعضهم من بعض .

- لست أقصد تلك النظم .. التى تحمى البعض من البعض .. ولكنى أقصد السدود التى تدعى حماية النفس من النفس .

دعوا النفس المسكينة فحياتها أقصر من أن تضيعها وراء السدود والقيود .. ان كثرة النظم .. نتجت عنها كثرة المخالفات والأخطاء ..

وأصبح الانسان لا يكاد يتحرك وراء رغبة من رغباته الا اتهم بوزر ووجد نفسه اما أن يقف فى الحياة مكتوف الأيدى ، مغمض العينين ، كأنه قطعة من الحجر .. وإما أن يكون مذنبا .. أجل .. لقد نظمت حياتنا بطريقة .. تجعلنا اما أن نحيا مذنبين واما ألا نحيا . ووسطاء السماء .. وهم فى قرارة نفوسهم أخبث منا طوية .. وأكثر شرا .. لايفتئون .. ينعبون بيننا .. كالبوم والغربان .. يحشرون أنفسهم فيما لا يعنيهم ، وينصبون من أنفسهم ناصحين مرشدين منظمين فى كل تافهة من توافه الحياة .

– أتريد منى أنا النصح والارشاد ؟

– أرجوك ... أنا فى عرضك .. لقد شبعت نصحا ، وارشادا فى حياتى الماضية .. ويعلم الله أنى لم أعمل به قط الا فى الظاهر .. وعلى أية حال .. بينى وبين النصح زمن طويل .. كل ما على الآن هو أن أستلقى لمدة عام كامل .. أرضع .. وأصرخ ...

– لا ... لا ... لن أقدم لك نصحا .. من نصح الوعاظ .. سأقدم لك نصيحة .. لو ذكرتها وعملت بها فستنفعك طيلة حياتك القادمة .. سأقدمها لك لسببين . أولهما أنى أتوسم فيك الطيبة .. وأشعر – بعد الوقت الذى قضيناه معا – أنك ابن حلال ... وتستحق الخير .. وأن المعروف الذى أصنعه معك لن يذهب سدى ، وأنا أشعر أننى أحببتك . ويبدو لى أنك الآخر قد أحببتنى .. هذا هو السبب الأول وهو سبب استلطافى بحت .. أما السبب الآخر فهو سبب مصلحى .. فأنا أشعر أننا قد اشتركنا معا فى تلك المؤامرة أو المقامرة أو المغامرة .. وهى مؤامرة استيلائك على جسد ولى العهد ولست أرغب فى فشلها .. ولا أود أن تتلف حياة ملك وتضيعها سدى .. ولما كنت أعتبر نفسى مسئولا

معك .. بل فى الواقع أنى المسئول الأول .. فانى أشعر أنه لابد لى من المعاونه فى نجاحها .. وذلك بتقديم النصح لك .. الآن ، وفيما بعد .. عندما يستلزم الأمر .

– قل نصيحتك وأرحنى وكفى ثرثرة .

– قبل أن أزجيها لك أود أن أفهمك انها نصيحة شخصية ، وأنى أعبر بها عن رأيى وحدى ، وأنها مستخلصة من طول تجاربى مع البشر وخبرتى فى الأرض والسماء .

– مفهوم .. مفهوم .. تريد أن تأمرنى بالبر والتقوى وتنهانى عن..

– لا ... لا .... أبدا ... لست أريد أن آمرك بشىء أو أنهاك عن شىء .. لن أزعجك بشىء من هذه القيود والسدود التى قلت انها تجعل الانسان حبيس الحياة وأنها تعرقل بسطة العيش وتكثر من قلاقله ، سأرفعها من أمامك كلها وأتركك ترعى فى منبسط الحياة رعى السائمة فى منبسط من العشب الأخضر .. انطلق فى دنياك بلا قيد ولا شرط ، لكى تحصل على بغيتك الأولى من العيش .. ولكن قل لى أولا ، حتى أكون واياك على بينة من أمرنا ... ما هى بغيتك من العيش ؟

– بغيتى ؟

– أجل بغيتك ؟ علام تريد رفع السدود والقيود والانطلاق فى الحياة .. من أجل ماذا ؟ ما الذى تريد أن تحصل عليه ؟

– على ... على ... على ... السادة ؟ أجل أن بغيتى هى السعادة !

– تماما ... نحن متفقان تماما فى هذا .. السعادة هى بغيتك ، بل هى أيضا حقك فى الحياة .. ولست بطالب منها شططا .. بل أنت والسماء

متفقان فى هذا .. ان هدف السماء الأول هو سعادة الأرض ، فاذا أنت سعيت الى سعادتك فأنت محقق بذلك رسالة السماء .. فالسماء لم تصنع الأرض الا لكى يسعد بها البشر ، ونوايا السماء بالبشر حسنة طيبة ، لا يدخل فيها الحرمان أو الشقاء .. انما هذا من صنع البشر لأنفسهم ومن سوء فهمهم لنوايا السماء .

– أرجوك .. قل نصيحتك ، ولا تخيرنى بين نياتنا ونيات السماء ، قل ما هى نياتك أنت ، ماذا تريدنى أن أفعل لكى أحصل على بغيتى ؟ لقد قلت لى انطلق فى دنياك بلا قيد ولا شرط .. والخطايا ؟ من يتحمل عنى عبئها ؟

– أى خطايا ؟

– التى أنوى ارتكابها .. أتريد منى أن أنطلق وراء السعادة بلا قيد ولا شرط ولا خطايا ؟ أيها الواعظ الماكر الخبيث ، تطلقنى بيد ، وتكبلنى بالأخرى . ان كل انطلاقة من الأرض وراء السعادة محملة بالخطايا .

– الخطايا ؟ أية خطايا تلك التى تتحدث عنها ؟ ان الخطايا شىء نسبى .. انها ناشئة عما سميته أنت سدود وقيود موضوعة لتنظيم سبل الحياة ، فهو شىء لا يوجد الا بوجودها عندما يوضع بينك وبين ما تريد حوائل .. اذا تخطيتها ارتكبت خطايا ... فالخطايا ليس لها وجود الا بوجود الحوائل ، فاذا رفعت الحوائل بينك وبين ما تريد ، فقدت حاجتك الى تخطى الحائل ، وفقدت بذلك ما تسمى الخطايا .. ولقد قلت لك فى أول نصيحتى .. انطلق فى حياتك بلا سدود ولا قيود .. انطلق لكى تحصل على بغيتك ، ولكى تأخذ ما تريد .

- هكذا ! ! هذه والله نصيحة مدهشة .. ليس هناك أسهل ولا أمتع ولا أحب الي من تنفيذها .. ولكن أريد منك ايضاحا .. من المسئول عن نتيجتها فى الدنيا والآخرة ؟ ! أنت ؟ أتضمن لى ؟

- أجل .. أضمن لك كل شىء .. غير أنى أريد أن ألفت نظرك الى شىء واحد .

- ما هو ؟

- لقد قلت ان بغيتك هى السعادة .. وقلت لك ان تلك أيضا بغية السماء ، فاذا أنا قلت لك ارفع كل والسدود لكى تحصل على ما تريد .. فانى أريد منك .. ألا تحيد عما تريد .

- ماذا تقصد ؟

- أقصد أن الانسان قد يريد شيئا ... ويعدو وراء شىء آخر .. أقصد أن غباوة الانسان أحيانا .. أو دائما على الأصح .. تدفعه الى ما لا يريد .

- أيضا .. لست أفهم .

- لقد اتفقنا على أنك تريد السعادة ؟

- طبعا !

- والسماء أيضا تريد السعادة للبشر جميعا .

- قلت أنت هذا .

- ولا زلت أقوله .. وهو حقيقة لا غبار عليها .

- مفهوم .

– اذاً فالسعادة هى ما يريد الجميع ؟

– أجل .

– اذا فحقق أنت سعادتك .. بالطريقة التى تحلو لك .. كيفما تشاء وحيثما تشاء .. ولكن دون أن تأخذ من سعادة غيرك .. وأفضل من هذا .. ساعد غيرك قدر ما تستطيع للحصول على سعادته .. أى اجعل هدفك تحقيق السعادة لنفسك .. ولأكبر عدد ممكن من البشر .. حتى تعاون فى أداء رسالة السماء

– هوه .. هوه .. كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا .. أيها الأفعوان اللولبى . بعد كل هذا .. تعود بى من حيث أتيت .. وتحدثنى عما يجب أن أفعله لغيرى ... ان ما أحققه من سعادة غيرى سيكون على حساب سعادتى .. اما أنا واما غيرى ؟ !

– كذب .. وافتراء .. أنا لم أقصد قط هذا .. لم أقل لك احرم نفسك لكى تعطى غيرك .. بل قلت لك لا تسعد على حساب غيرك .... افعل كل ما يسعدك بشرطين .

– الأول .

– أن تضمن حقا أنه يسعدك .. أعنى الا تكون سعادتك سريعة الزوال عاجلة المسترد .. وهذا هو ما يفعله ثلاثة أرباع البشر وهو أيضا ما غنيته بالعدو وراء ما لا تريد أو الجرى وراء سراب السعادة وليس السعادة نفسها .

– معنى هذا انى لن أعدو وراء شىء .. لأنه ما من سعادة هناك دائمة أو خالصة الا ما يدعونه من سعادة الخير والتضحية وانكار الذات

والحرمان .. الى آخر سلسلة الشقاوات التى يحملونها من السعادة ما لا تقبل لها به .

- أنا لم أقل لك سعادة دائمة أو خالصة .. ولكننى قلت سعادة ليست سريعة الزوال كومض البرق ... أو قشرة من السعادة تستر وراءها أكداس الشقاء .. إن السعادة لا تكون خالصة أبدا ولا دائمة أبدا ، ولكن العاقل من أقدم على العمل الأطول سعادة والأكثر متعة .. ان المسألة موازنة دائما بين كمية الشقاء والسعادة التى تنتج عن فعل معين فاذا رجحت كفة سعادته كفة شقائه فأقدم عليه واحتمل شقاءه الأقل فى سبيل الحصول على متعته الأكثر ... أما الدوام فهو مستحيل .. ان الانسان نفسه غير دائم فكيف تكون سعادته دائمة ؟ . كيف تفرض شيئا دائما على شىء غير دائم ؟ ولكن العاقل من أقبل على حياته يقتنص من سعادتها القطعة تلو القطعة .. والفترة تلو الفترة .. ان الحياة أيام معدودات .. والكاسب فيها من استطاع أن يملأ أيامه بأكبر قدر من السعادة .. ان كل دقيقة يقضيها الانسان وهو سعيد ... أى نوع من السعادة .. ولأى سبب كان .. هو ربحه فى الحياة ... والخارج من الحياة بأكبر قسط من السعادة .... (وأعنى بالسعادة .. حصيلة السعادة الناتجة عن حياته كلها) . هو لا شك أقرب الناس الى السماء ....

- حتى لو أخذها عن طريق الشر ؟

- قلت لك انه ليس هناك خطايا مجسمة كأنها قائم فى ذاته ... وكذلك ليس هناك شر كشىء قائم بذاته .. ان الشر لايكون الا بمظاهره .. ومظاهر الشر ... هى الشقاء .. فاذا لم يتسبب عما تعمله شقاء لك أو لغيرك فهو ليس شرا .

- حتى ولو انطبقت عليه المصطلحات الأرضية للشر ؟

– أجل .. فاذا كذبت ولم تؤذ نفسك ولا غيرك .. فليس الكذب شرا... واذا سرقت فأسعدت بالسرقة نفسك أو غيرك .. دون أن تشقى سواك .. فاسرق ... افعل كل منكر ما دام فعله لا ينتج شقاء ... وعندما أقول لا ينتج شقاء .. لست أحصرها فى وجهة نظرك .... بل فى وجهة نظر المجموع .

– هذا شيء محير ... ومن يضمن لى ألا يتسبب فعلى فى شقاء لأحد .. قد لا أعرفه ؟

– اذا ساورك الشك .. لا تفعله .

– سيساورنى الشك فى كل ما أفعل .. فلا أفعل شيئا .

– لا ... لا ... لن يساورك الشك الا فيما سترجح فيه كفة شقائك أو شقاء غيرك .

– والشرط الثانى ؟

– أن تفعل كل شيء بقدر .. لا تبالغ فى شيء .. على الأقل حتى لا تفقدطعمه .. ان كل شيء يفقد متعته بالافراط فيه .. ولذة الشيء انما هى فى الرشفة الأولى ... والذوق يدرك بطرف اللسان وليس بالولوغ فيما تذوقه .. فاذا ما قلت لك أزل السدود والقيود وانطلق فى مرعى الحياة .. فاياك أن تنطلق فى اتجاه بعيد المدى حتى تبهر انفاسك .. ويقطع قلبك ، ويضيع جهدك فتلقى وسط المرعى لا حراك بك ولا ذوق عندك ولا شعور ولا حساسية .. بل تنقل فى المرعى وسر وئيدا .. وكل وئيدا .. واشرب وئيدا .

– قلت ان الحياة أيام معدودات .. وأخشى أن أكل وئيدا .. وأشرب وئيدا .. فتنفذ الحياة وأنا لم أنل منها سوى قسط قليل .

ولماذا تريد أن تأخذ قسطا وفيرا .. ليس هناك قانون فى الحياة .. يجعل السعادة تتناسب تناسبا طرديا مع مسبباتها .. أن السعادة حدا تقف عنده .. كما للألم نهاية يتوقف عندها مهما ازدادت مسبباته .. ان متعات الانسان محدودة .. ولكن للمتعة نهاية مهما استمرت مسبباتها . فلذة الأكل لها حد ... ولا يمكن أن تزداد الى ما لا نهاية بازدياد كمية الطعام أو نوعه .. ولذة الجنس ولذة المال .. وكل لذة .. لابد واقفة عند حد .. والذى يثكل خمسة أولاد لا يحزن خمسة أضعاف الذى ثكل ولدا .. فلماذا تطمع فى أكبر قسط من الحياة ؟ ! ان كل ما أنصحه لك هو أن توازن قبل أن تقدم على شىء معين نتيجة السعادة والشقاء التى ستحصل عليها منه .. ثم توازن بين السعادة التى ستحصل عليها وبين الشقاء الذى يحتمل أن يصيب غيرك .. فاذا رجحت كفة السعادة أقبل عليه .. وأظنني بعد هذا قد أبرأت ذمتى منك . وأؤكد لك أنك لو اتبعت نصيحتى .. فستخرج من الحياة هذه المرة بقسط أوفر من السعادة .. وخاصة بعد أن وهبت لك من البداية كل عناصر السعادة .. والآن أستودعك الله .

– (صراخ شديد .. تقبل على الممرضة الفاتنة وترفعنى) ألا تنتظر برهة حتى يذهب عن هذا المغص الشديد ؟ ! قل لى بربك .. أليس عندك شىء ؟

– عندها هى كل شىء .. هى التى ستتولى أمرك .. ألا يعجبك صدرها ؟

– قد يعجبنى فى المستقبل .. ولكن ما الفائدة . عندما يأتى المستقبل سيكون قد سقط وتهدل ؟ !

- لا بأس ستجد غيره الكثير .. ان أمامك الحياة باسمة ضاحكة مكتظة بالمتع وتستطيع أن تفعل الشىء الكثير بالجهد القليل ... أمامك أرض طيبة وشعب طيب ... على استعداد لأن يمنحك كل شىء بلا مقابل .. فتذكر نصيحتى .. اجعل هدفك تحقيق السعادة لنفسك ولأكبر عدد غيرك من البشر .. وأؤكد لك أن السعادتين لن تتعارضا . وافعل كل شىء بقدر ، واعلم ان السعادة بطبيعتها محدودة المدى فلا تفرط فى مسبباتها والا فقدت هذه المسببات قدرتها على منحك السعادة .

- اسمع .. اسمع .. يا للخجل لقد حدث كل شىء .

- ماذا ؟

- لقد فعلتها ... دون أن أشعر .

- لا عليك .. ستتولى هى عنك أمرها .

- لعنة الله عليك .. انى شديد الخجل .

- لا تخجل .. لقد كانت سبب المغص .. ستفعلها كثيرا فى المستقبل ، وسيعدونها فعلة ملكية سامية .. وهكذا كل ما تفعل فى حياتك الجديدة .. مهما ساء وقذر ، وسيكون فعلا كريما ساميا .. احمد الله .

(أغمض عينى وأروح فى سبات عميق) .

الفصل الثالث المنظر الثانى

(فى القصر الملكى بعد ثلاثين عاما .. حجرة الصالون ، الملك يروح ويغدو فى عصبية وحوله الحاشية ، ومن الخارج هرج ومرج وهتاف وصياح .. انا مستقر فى جسد الملك . عزرائيل يهبط فجاة من النافذة .. وقد بدت عليه الدهشة والذهول) .

عزرائيل يبدأ الحديث :

– ما هذا ؟ ماذا حدث لك ؟

– (فى ذعر) أنت من ... من ؟

– مالك تصرخ هكذا .. ألا تعرفنى .. انى صديقك .

– أخيرا .. بعد هذه المدة الطويلة تهبط الي .. كدت والله لا أعرفك .

– وأنا أيضا كدت لا أعرفك ، لقد أصبحت مخلوقا آخر .

– مخلوقا آخر ؟ ! ماذا تغير فى ؟

- ماذا تغير فيك ؟ ! كل شيء . من أين لك كل هذا ؟

- كل هذا ؟ أتقصد الملك والسلطان ؟ بالوراثة طبعا ، ألا تعرف ؟

- لست أقصد الملك والسلطان ، ولكن أقصد .. الشحم واللحم ، أقصد الكرش تحت صدرك ، والسنام فوق ظهرك ، انى ما تصورتك قط على هذا الشكل المنبعج المنتفخ ، أذكرك وأنت وليد عندما هبطت بروحك .. كنت مخلوقا جمّل الله خلقك وسوى قسماتك ، وأذكرك كذلك عندما هبطت لآخذ روح أبيك ، وقد لمحتك شابا وسيما ، جميل التقاطيع ، جذاب الملامح ، رشيق القد ، رائع البنيان .. كنت يومذاك نموذجا لملك .. لم أحدثك وقتذاك فقد كنت فى عجلة من أمرى ، وكنت فى عجلة من أمرك .. كنت تتأهب للملك ، ولا أكتمك القول أننى أحسست عند رؤيتك بالزهو وملأتنى الغبطة .. لقد شعرت أنى لم أخطىء فيما فعلت ، وأن مغامرتى قد نجحت تماما .. بل انها لم تكن مغامرة على الاطلاق .. اذ كانت وضعا للشيء فى موضعه .

- والآن ؟

- الآن .. أجدك قد أضحيت مخلوقا آخر ، أعوذ بالله من شر ما خلق ، بل شر ما فعلت أنت بما خلق ، أين شعرك الذى حلت محله قرعة ملساء ، وأين قدك الذى تكور ؟ لشد ما ذهبت عنك سمات الآدميين ، لقد صرت أشبه بالفيل الأبيض .

- صه ، ما هذا الذى تقوله ؟ ! هذا كلام يعاقب عليه القانون ، هذا عيب فى الذات الملكية .

- هذا مجرد وصف .. هذا تقرير واقع .

– اذاً فأخفض صوتك ، والا سمعك أحد الحاشية . الظاهر انك قد نسيت نفسك ؟

– أنا الذى نسيت نفسى ، أم أنت الذى نسيت نفسك ونفسى ؟ ! لا تأبه لى ولا لصوتى .. فما من أحد يسمعنى سواك .. أنسيت ؟

– لم أنس ، ولكنى لم أتعود قط أن يصفنى أحد بتلك النعوت القبيحة التى تنعتنى بها ، تعودت دائما .. أن أسمع أنى جميل ، وأن النور يشع من جبينى . و ...

– وكنت تصدقه ؟

– نعم ، أحيانا ، ولا ، أحيانا .. عندما أكون فى حالة نفسية راضية .. أصدقه ، وأرانى جميلا فعلا ، وعندما أغضب وأثور .. أعرف أنهم ينافقوننى ، ولكن ماذا يضيرنى فى كلتا الحالتين .. ما دام القانون يضمن لى أوصاف الجمال والكمال ، ويعتبر كل ما عداها ، خرقا له .. يستحق صاحبه عليه العقاب ؟ ! ماذا يهمنى .. ما دمت جميلا بحكم القانون ؟

– وبحكم النفاق والمنافقين ؟

– أجل ! ان كل شيء .. يضمن لى ، أجمل الأوصاف وأبدع النعوت ، ويفرض الرضا على كل من حولى .

– حتى نفسك .. هل فرض الرضا على نفسك أيضا ؟

– على نفسى ؟ ! لا أظن .. ان مشكلتى فى الحياة .. هى الرضا .. انى أحاول أن أرضى نفسى عبثا . انى لا أجد قط ما يرضينى .

– عجبا ! ! عجبا ! ! ما أسرع ما نسيت نصحى .

- نصحك ؟ ! ما هو ؟

- ما الفائدة من تكراره الآن ، بعد أن سبق السيف العذل .

- سبق السيف العذل ؟ ماذا تقصد ؟

- ماذا أقصد ؟ ! ألا تشعر لما وصل اليه الحال ؟ ! ألا تحس بما حولك ؟

- تقصد هذه الهتافات فى الخارج .. انها مظاهرات تافهة .... سرعان ما تفرقها العصى .

- أيها الغافل ، أما زلت واهما ؟ ! أما زال هؤلاء الحمقى المضللون من حاشيتك يضعون على عينيك غشاوة التضليل ؟

- أنت أيضا تتهم حاشيتى بالسوء . أنت أيضا ضدى . وضد العرش .

- أنا ضدك ؟ ! الظاهر أن التفهام معك أضحى متعذرا ، ان روحك قد غاصت بين طبقات الشحم فى جسدك السمين وبات الاتصال المباشر معها متعذرا ... ان جسدك الملكى ، يحول بينى وبينها ... انس نفسك برهة ، ودعنا نتحدث .

- نتحدث فيم ؟ ! ليس هذا بالوقت المناسب للحديث . أنت ترى الأزمة التى أنا فيها ؟

- انى قد أعاونك عليها .

- تعاوننى عليها ؟ .. أتستطيع ؟ .

– لم لا ... ان بيننا صداقة قديمة .. لقد سبق أن انقذتنى أنت فى أزمة الأرواح التى حلت بنا .. وتطوعت بالنزول معى .

– أجل ... أجل .. ولكن كيف تستطيع معاونتى ؟

– دعنا نتباحث فى الأمر .. ما سبب كل هذه المظاهرات والهتافات التى تسىء اليك .. انى أذكر أنهم استقبلوك استقبالا حافلا عند بداية توليك أمرهم ؟

– أجل .. أنا أيضا أذكر هذا .

– وأذكر أيضا أنهم ظلوا يحوطونك بحبهم وولائهم بضع سنين بعد ذلك ؟

– أجل ... أجل .

– هل تذكر أنك تكلفت جهدا كبيرا فى كسب محبتهم ؟

– لا أظن .. لا أعتقد أنى أجهدت نفسى فى شىء .. لقد منحونى حبهم بلا مقابل .

– كانوا على استعداد لأن يمنحوك اياه .. كانوا مهيئين لذلك وأغراهم مظهرك به .. فاندفعوا يكيلون لك المحبة بلا حساب . وينشرون حولك هالة من النور ... فأبيت أنت الا الانطلاق خارجها ... وهبطت من عليائك .. وانطلقت تعدو مجردا عن كل ما يستر عوراتك ويحجب نقائصك .

– انى بشر .

– أعلم أنك بشر .. ولكنك بشر مميز .. عندما عرضت عليك الأجساد رفضت أن تهبط فى جسد عادى .. حتى جسد الزعيم .. ولم

تقبل الا النزول فى جسد ملك .. فكان عليك بعد ذلك أن ترعى حق الجسد المميز الذى أنزلت فيه .

- ماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟ ! أأحرم نفسى ما يتمتع به البشر العادى ؟

- لم أقل لك هذا .. اننى عندما نصحتك .. قلت لك حقق هدفك الأول ، هو السعادة .

- هذا هو ما فعلت .. انطلقت وراء هدفى فى الحياة ... انصرفت آخذ حقى منها كما يفعل كل البشر .. وتخطيت كما قلت أنت كل سدود وحطمت كل قيود .

- أنت حقا قد تخطيت كل سدود وحطمت كل قيود ، ولكنك لم تنطلق وراء ما تريد .. بل انطلقت الى غير ما تريد .. لقد اندفعت ولكن الى غير بغيتك .. وهذا هو ما حذرتك منه .. لقد رفعت السدود وانطلقت كالحصان الجامح الثائر الذى يظل يعدو الى غير غاية حتى تقطع أنفاسه وتخور قواه .. لقد قلت لك افعل كل شىء بقدر ولا تبالغ فى شىء ... ألا تذكر كلمتى بالحرف الواحد : « ان كل شىء يفقد متعته بالافراط فيه .. والسعادة بطبيعتها محدودة المدى فلا تفرط فى مسبباتها والا فقدت المسببات قدرتها على منحك السعادة » ؟

- أجل .. تلك هى المصيبة .. لقد استهلكت كل مسببات السعادة .. وتجاوزتها ، ولم أجد بعد فى كل ما حولى سوى أشياء جافة كمصاصة القصب التى استنفدت عصارتها ، ولكن .. ماذنبى أنا .. اذا كنت لم أجد سدا يقف فى سبيلى ؟ ! ما ذنبى وأنا لم أجد قط اللجام الذى يوقفنى ؟ ! انى بشر وكل انسان له من ظروف الحياة ما يوقفه عند حد أما

أنا فقد كنت انسانا بلا ضابط .. لم يجرؤ أحد ممن حولى أن يضع اللجام فى فمى .

-- تلك هى العلة .. أيها المسكين .. ان مصابك هو أنك انسان بلا رقيب .. ولقد قلت لك ارفع السدود والقيود ، ولكن لا تجر الا وراء الغاية الصحيحة .. وكنت أعنى بذلك أن يكون لك وازع من نفسك ... وأن تعرف أين سعادتك .. ولكنك وللأسف .. انطلقت بلا حد .. والى أين ؟ .. فى الطريق العكسى .. طريق الشقاء .. وكان لابد لك أن تصل فى النهاية .. الى ما وصلت اليه الآن .. مجرد جسد منتفخ منهك خائر .. أليس كذلك ؟

- أجل .. أجل .. ولكن .. يعلم الله أنى لست وحدى المسئول ... ان كل بشر له ممن حوله عون على نفسه .. أما أنا فقد تركت وحدى بلا عون .. من أحد ..... اللهم الا أولئك الذين ينطلقون ورائي وحولى يعبون مما أعب وينهلون مما أنهل .

- أنت السبب فى ذلك .. فان صح أنه لم يجرؤ أحد على وضع اللجام فى فمك فلأنك كنت ثائرا هائجا .. عضاضا ، رفاسا . كنت حصانا شقيا فكفوا أنفسهم شر قيادتك واتقوا عضك ورفسك .. ولم يحاول أحد منهم أن يقودك ، بل انطلقوا وراءك بلا لجام ، وكنت لاتفتأ ترفسهم الواحد تلو الآخر .. فلم يسلم منك أحد .. ولم يبق لك بينهم صاحب .

- هم الذين أغرونى بأنفسهم .. استخذلوا فطغيت ، وخافونى فبطشت .

- من يعلم أيكم السبب ؟ . وأى الوضعين كان نتيجة الآخر ؟ . استخذالهم أم « طغيانك » .. وضعفهم أم بطشك ؟

– لا تظلمني .. هم الذين كانوا السبب .. هم الأسبق ، لقد فعلوا بي ما لا يخطر على بال بشر .. أؤكد لك أني لو تركت نفسي ، وانطلقت بلا قيد ولا سد ، ما فعلت ما فعلت . ولكنهم لم يكتفوا بأن يتركوني طليقا .. بل دفعوني دفعا وزينوا مباذلي وجملوا مفاسدي ... كنت ارتكب المعصية بالليل .. كأي بشر عادي .. ولكن البشر العادي ، عندما يستيقظ في الصباح .. يذكر معصيته .. فيشعر بثقلها . أما أنا .. فكنت أستيقظ لأجد نفسي .. أمام العشرين مليونا ، ماذا تظن ؟ انسان عاص ؟ انسان عادي ؟ أبدا .. كنت أجد نفسي : المؤمن الأول ، والمسلم الأول ، وموصوفا بالورع والتقوى ، ممن ؟ .. من شيوخهم وأئمتهم .. كنت لا أفعل فضلا .. وكبارهم ينسبون إلى كل فضل ... كل شيء بارشادي ورعايتي ولفتاتي ... اذا ضبط فص حشيش فبفضلي .. واذا عبر أحدهم المانش ... فبتوجيهي .. حتى وجدتني في النهاية ... فاعل كل شيء في هذا البلد .. وجدتني على وصفهم : العامل الأول .. والطبيب الأول ، والزارع الأول ، و .. و .... كل هذا ... وأنا لا أفعل شيئا .. كل هذا يأتي لي دون جهد ، . بل أحيانا .. أفعل نقيضه واتهم به .. قل بالله عليك .. لماذا أفعل الفضل ، اذا كنت أراني صاحبه دون أن أفعله ؟

– وعلى ذلك كففت عن فعل الفضل ؟

– بالطبع .. اني لست مجنونا حتى أكلف نفسي مشقة شيء يأتيني دون مشقة .

– وانطلقت بعد ذلك وراء المعصيات ؟

– لقد قلت أنت أنه ليس هناك معصيات .

– انطلقت وراء المتعة ؟

– أجل .. أنا بشر .. بشر أملك الفراغ والقدرة .. وكل مسببات المتعة .. وبعد كل هذا .. ليس لى من حد .

– أيها المسكين .. كنت أشبه بالقربة المثقوبة التى لا تمتلىء ... أنت بائس تعس .... ان كل انسان فى الحياة له حد يعوقه ويوقفه عن الاندفاع الى القرار .. كل انسان يحب النساء .. ولكن له حد من العجز ... العجز فى المال .. أو فى الوقت ... أو فى الخوف ممن حوله ... أو فى خشية التقاليد .. ولكن ماذا كان يحدك أنت .. الوقت أمامك كالصحراء العريضة لا نهاية لها .. والمال .. زاخر كالبحر لا قرار له .. والقدرة .. كل الدولة ومرافقها مسخرة تحت أمرك .. من وزرائها .. الى مساجينها . ماذا بعد ذلك يحد انطلاقك .. ويوقف اندفاعك ؟

– شيىء واحد كان يوقفنى .. وهو الملل وفقد الاحساس بالمتعة بعد استنفاد عكارتها .

– وكان عليك بعد ذلك .. البحث عن وسائل جديدة للمتع .

– أجل ووجدت فى القمار بغيتى .. فما قتل الوقت غيره ... والمقامر العادى .. تحده ظروف حياته .. يحده وقته المحدود وماله المحدود .. فاذا ما طال به اللعب فلابد من عامل يوقفه .. اذا كان موظفا فلابد أن ينام ليذهب الى عمله .. واذا كان زوجا فلابد أن يعود لزوجته .. ثم هو بعد ذلك وراءه من يحاسبه على ماله ووقته .. أما أنا .. فقد كنت مطلق المال ، مطلق الوقت ، مطلق الحرية ... كنت انسانا بلا حد ، اذا ما لعبت فقد أجلس على مائدة اللعب بضعة أيام

بلياليها ، لا أكف عن اللعب .. وبجوارى الطعام أتزود منه اذا ما شعرت بجوع .

– على أية حال ، كل هذا لم يكن ليودى بك الى تلك النتيجة لو فعلته خفية ، وكان فى مقدورك ذلك وأن تستتر فى ارتكابه .

– وعلام أستتر ؟ اننا نحاول التستر لكى نحجب مفاسدنا فيصفنا الناس بغير ما نحن عليه ، نرتكب الفحشاء فيقولون عنا أتقياء ، ونقامر فيرموننا بالورع .. أليس كذلك ؟ .

– أجل .

– علام أستتر اذاً .. وأنا أجد الستر جاهزا .. من عند الدولة ! علام أستتر ... وأنا مستور بقانون ؟ ! قانون الدولة لايعتبر العيب فيمن يقول عنى ذلك .. وعلى ذلك .. فقد كان من الغباء أن أجهد نفسى فى اخفاء معايبى .. ما دام القانون يسدل عليها حجابا .

– أنت مستور بقانون .. ستار رسمى .. ولكن الشعب كله يعرف ما تفعل .

– وما الضير فى أن يعرف ؟

– يكرهك .

– وما الضير فى أن يكرهنى ؟

– ينصرف عنك .

– هو لا يملك الانصراف .... سلنى أنا عنه ... لقد كان يستقبلنى فى حشد لم أر له مثيلا .. أتدرى متى ؟ ولمه ؟ عندما عدت من أكبر جوله فجور فعلتها فى حياتى .. لقد استقبلونى استقبال الغزاة .. ماذا

أريد أكثر من هذا ؟ لقد لبسوا على والدى كرافتة سوداء بعد خمسة عشر عاما من وفاته ... وهم يخلعونها بعد وفاة أبائهم بعام واحد .. ماذا أريد منهم أكثر من أن يحزنوا على أبى أكثر من آبائهم ؟ لقد وضعوا اسمى قبل الوطن . وقد يضعونه قبل الله ... أتريد أكثر من أنهم بعد كل ما فعلت من فجور جعلونى من أقرباء النبى .. تطوع نفر منهم بذلك .. ولم يعترض منهم أحد ... وقبلوا كل شىء على العين والرأس .. علام أستتر اذاً وعلام أتخفى .. وأنا أدرك كل نتائج التخفى والاستتار ؟

– على أية حال ... لا أظن فسقك وفجورك وحده يحدث هذا الغليان الذى أراه فى الخارج .. لو لم تتعد شرورك محيط نفسك لما أثارت عليك مثل هذا السخط ، ولكن يبدو لى أن اندفاعك قد جاوز حد نفسك ، قلت لك انطلق وراء سعادتك .. وأسعد نفسك .. وكل من استطعت من البشر .. ولكنى أراك أشقيت نفسك .. ثم تجاوزت نفسك الى سائر البشر فأشقيت سواك .. قلت لك ليس هناك فعل قائم بذاته اسمه شر .. ولكن الشر هو ما ينتج عنه شقاء .. وكل أفعالك أنتجت الشقاء لك ولأكبر عدد استطعت من البشر .. وهذا هو عين الشر .. أنت كما قلت كالقربة المثقوبة ، لا تمتلىء أبدا .. كلما حاولت أن تجمع شيئا تسرب منك .. وكان آخر رغباتك جمع المال وكان المال يتكدس حولك .. ولكن لايستقر فيك .. لم تكن تشعر به قط ، ولو شعرت به وبمقداره ما فكرت فى أن تزيده أنملة .. ولكن نفسك فقدت الاحساس بكل شىء وبعد ذلك عدت تلعب بمصاير الناس والبلد لعب الدمى .

– كانوا كلهم أمامى كالدمى .. فلم أملك الا أن ألعب بهم لعب الدمى .

– أيها المسكين .. لشد ما أخطأت الطريق .. أنظر فى النافذة التى أمامك .. ماذا ترى ؟.

- ألمح عن كثب .. أمواج الشعب الهاتف الثائر .

- هذا من صنعك .. إنظر من النافذة التى وراءك . ماذا ترى ؟

- لست أرى شيئا .

- انظر جيدا .. هناك أشياء كثيرة .. لا تراها ... لأنك لا تحاول أن تراها .

- لست أرى شيئا .

- قل ماذا وراء النافذة ؟

- فراغ .

- ماذا بالفراغ ؟ ! مم يتكون الفراغ ؟

- سماء ... وهواء .. وحديقة خضراء .

- هذا هو الذى لا تراه .. وهذا هو الذى صيرته أنت فراغا . هذ الحداق الممتدة . هذا الأمن والطمأنينة . هذا الجاه العريض والنعمة السابغة ... هذا الفيض من النعيم الذى لا يشعرك بالحاجة الى أى شيء .. هذا الاغداق ... من الله ... والطبيعة والبشر .. هذا الذى يستقر صاغرا أمام اشارة من أصبعك .. هذه الحياة المستقرة الهادئة .. ذات المال والبنين .. هذا الحب الذى تمتعت به ... بل حتى الخطايا المحدودة المستترة التى كنت تستطيع أن تتمتع بارتكابها كغيرك من عباد الله ... كل هذا .. قد رأيته فراغا .. بل لم تره أبدا ... وتجاوزته لتعدو وراء السراب البعيد .. لقد أستقللت تلك النعم على ملك .. وكرهت أن تتساوى مع سائر البشر فى نعمائهم ، وتطلعت الى شيء أكثر وأكبر . وتجاوزت هذا وعدوت وراء الأفق الفارغ .. كرهت أن تكون لك معدة محدودة ..

تمتلىء كما تمتلىء بقية المعدات غير الملكية .. فأقبلت بينهم على كل ما أمامك ، ولكنك وجدت نفسك تمتلىء كبقية الناس .. ولم تقتنع بأن قدرتك على السعادة محدودة كسائر البشر ، وأخذت تلتهم .. حتى وجدت نفسك لا تتذوق شيئا .. ولم تجد هناك جديدا يرضيك فاندفعت ثائرا هائجا .. وقد ضاقت السبل أمام عينيك .. كيف تكون ملكا .. وفى يدك كل هذه الوسائل والقوى ... وأنت لا تجد ما يعادلها من المتع ؟ .. ونسيت يا صاحبى ما قلته لك : « ان السعادة بطبيعتها محدودة المدى فلا تفرط فى مسبباتها والا فقدت هذه المسببات قدرتها على منحك السعادة » .

– لا فائدة الآن .. من هذا .. تلك نصيحة فات أوانها ، ولو عادت لى الفرصة لتنفيذها .. ما فعلت .. النصائح هى أضعف الوسائل لاصلاح البشر .. أتلك هى وسيلتك لمعاونتى ؟ ! أهذا هو كل ما تملك ؟ .

– ما الذى تريده منى ؟

(الصياح يشتد فى الخارج ، وتسمع أصوات طلقات ، هرج ومرج بين الحاشية) .

– أتسمع ؟ ! لقد بدأ التصادم ... الظاهر .. أن المسألة جد هذه المرة ، ما العمل ؟ ! قل لى ؟ ! دبرنى لابد أن تعيننى ، أنت تذكر أنى لم أكن أريد أن أهبط معك أول الأمر .. وأنى نزلت لمجرد معاونتك ؟

– أجل ... أجل .. أذكر جيداً .

– وتذكر أنك شريك معى فى المؤامرة .. أو كما سميتها المغامرة .. وأنك مسئول عنها ؟

– أنا لم أقل لك أن تفعل بنفسك ما فعلت .. لقد نصحتك أول الأمر .

– ولكنك قلت لى انك لن تتخلى عنى .. وانك ستعاوننى عندما أطلب العون .. لقد وعدت .. ألا تذكر ؟ .

– أنكر جيدا .

– وما زلت عند وعدك ؟ .

وما زلت عند وعدى .

– اذاً هيا افعل شيئا .

– ماذا تريد أن أفعل ؟

– أى شىء .. غير النصيحة .. أريد منك معاونة عملية .

– كيف ؟ ! لا أفهم ؟ .

– اسمع . أليس عملك هو قبض الأرواح ؟ .

– أجل .

– حسن .. انى لن أكلفك بشىء فوق طاقتك .. سأطلب منك معاونة .. هى من صميم عملك ! .

– لم أفهم بعد .

– أريد منك أن تقبض بعض الأرواح .

– أقبض بعض الأرواح ؟ أنا ؟

– أجل .... أهذه عملية شاقة ؟

– أبدا . أبدا . هذا أيسر ما أستطيع فعله .

– اذاً انتهينا .. سأملى كشفا بالأرواح غير الموالية للعرش فتقبضها وتريحنا منها .

– من هم ؟ .

– لنبدأ بزعيم الحركة السرية .. التى لا تفتأ تثير الشغب وتزعجنا بالقلاقل والفتن .

– ومن هو ؟ .

– انى لا أعرفه .. ولكنى لا أظنه يخفى عليك ! .

– لن يستعصى على .. سأعرف كيف أجده ! ومن غيره ؟ .

– عصابته .. حتى لا يخلفه منها خليفة .. فيستمر فى مناوأتى .

– وكم تبلغ ؟ .

– عشرة .. عشرون .. لست أدرى .

– من غيرهم ؟

– ومن غيرهم .. دعنى أتذكر .. أجل ، أجل ، زعيم حزب الحرية ، الذى لايفتأ يغمزنى على صفحات جريدته ، والذى يكتب عن أملاكى ، ويندد بأعمال الحاشية .

– ومن معه ؟

– سكرتير الحزب .

– فقط ؟ .

– وبقية أعضاء الحزب .

- ومن أيضا ؟

- قالت لى ومن أيضا ، دعنى أتذكر .. هذه فرصة للتخلص منهم جميعا والراحة من عنائهم وسخافاتهم ووطنيتهم .. اسمع تذكرت ، أعضاء « البرلمان » أصحاب الاستجواب المعهود ، الذى فضحونا به .

- كم يبلغون ؟

- أظنهم عشرة ، وأضف اليهم رئيس المجلس الذى ترك الاستجواب يستفحل ولم يقتله فى مهده .

- يسيرة ، ومن أيضا ؟

- خذ معهم بالمرة ، النائب الذى طلب تخفيض ميزانية القصر لقد كان وقحا جدا ، دعنا نتخلص منه حتى لا يعود الى ازعاجنا .

- ومن غير هؤلاء ؟

- غير هؤلاء . انتظر ، دعنى أفكر ، أجل تذكرت ، رئيس تحرير مجلة الوطنية ، ذلك الصحفى الأخرق ، الذى لايكف عن الهجوم علينا ، والتحدث عما يجب أن يكون الملك ، وخذ معه محررى الصحيفة .

- أيكفى هؤلاء ؟

- لا .. لا .. انتظر ، لقد نسيت ، الشيوعيين ، خذهم جميعا انهم خطر داهم على العرش .

- والشيوعيون أيضا ، من تريد غيرهم ؟

- وطلبة الجامعة الذين هتفوا ضدنا ، والذين حطموا صورنا ، ولعنوا « سنسفيل » أجداد آبائنا .

– وهؤلاء أيضا ، ألديك أعداء آخرون ؟ .

– أجل ، أجل .. طلبة المدارس الثانوية ، هؤلاء الصبية الحمقى ، لقد سبونا وهتفوا بسقوطنا .

– ومن أيضا أعداؤك غير هؤلاء ؟

– لقد نسيت .. الاخوان المؤمنين .. خذهم أيضا ، انهم أكبر خطر على عرشنا ، خذهم كلهم .

(تزداد الضجة فى الخارج وتقترب من أبواب القصر وتزداد الطلقات) .

– ان المسألة تبدو خطيرة جدا .

– أجل .. أجل ، يبدو أنهم قد حطموا أبواب القصر أسرع ... أسرع .. والا فات الوقت .

– أهؤلاء وحدهم من تريد أن آخذ أرواحهم ؟

– دعنى أفكر ، ما زال هناك أعداء لم أذكرهم .. اسمع ، من باب الاطمئنان ، خذ كل من يكرهوننى .

(يسمع صوت فرقعة شديدة وتتدفق جموع الشعب داخل القصر) .

– كل من يكرهونك ؟

– أجل .

– أتدرى كم يبلغ عددهم ؟

– ليكن ما يكون ، غير مهم عددهم .. أسرع .. أسرع ، أرجوك .

– انظر ، أترى هذا الحشد الهائل ؟ انهم كلهم يكرهونك .. كل الشعب يكرهك .. آآخذ كل الشعب وأتركك يا صاحب الجلالة بلا شعب ؟ أظن لن يكون لك قيمة اذا كنت ملكا بلا شعب . ان ملكك مستمد من وجوده ، وسلطانك مستمد من كيانه ، وأنت بغيره لا شيء ... أنت بغيره كزاهد في صومعة ، أو تائه في صحراء ، واذا أخذته يا صاحب الجلالة ، فلن تستطيع أن تصنع شعبا غيره ، أما اذا أخذتك أنت ...

– أنا .. ايها الخائن ، أنت أيضا من الثوار ؟

– مهلا يا صاحب الجلالة ، اذا أخذتك أنت ، فليس أسهل عليه من أن يصنع غيرك ، صنع الملوك سهل ، وصنع الشعوب مستحيل .

(يدخل الثوار الى الصالة وتنطلق رصاصة فتصيب جسد الملك ويخر صريعا ، وأصعد أنا بجوار عزرائيل تاركا الجسد ملقى على الأرض) .

– أيها الخبيث . لقد فعلتها ؟

– لقد خلصتك من أسوأ ما حللت به .. ألست تشعر الآن بالسعادة ؟ .

– جدا ، ولكن الجسد الملكى .. أسنتركه هكذا ملقى تحت الأقدام .

– كله جسد يا صاحبى ، ملكى وغير ملكى .. انها أوهام يقضى عليها الثرى ، ويبددها باطن الأرض ، هيا بنا .

– انتظر ... هناك شيء أريد أن أعرفه .

– ماذا ؟ شيء خاص بجسدك الملكى ؟

– لا .. لا .. أريد أن أعرف الزعيم الذى أقض مضجع الملك وثل عرشه .. من يكون ؟ .

- ها هو ذا .. انه قادم أمامك وسط الشعب المتدفق .

- أهو هذا ؟ ! ترى من يكون ؟

- انه عبد الحليم .

- عبد الحليم ؟ .

- أجل ! عبد الحليم أبو رابية ، الذى رفضت أن تحل فى جسده ... أتذكره ؟

- عجبا ! ليتنى سمعت نصحك وحللت به .

- لا فائدة من الندم ، هيا بنا .

- أريد شيئا واحدا ، لو استطعته ألقيت عن كاهلى عبئا ثقيلا .

- ما هو ؟

- أريد أن أنصحه . أريد أن أحذره مما وقعت فيه . أريد أن أكشف له الوصوليين والمنافقين والصحافيين .. أريد أن أحذره من غرور السلطان . أريد أن أطلب منه ألا تنسيه السلطة نفسه كانسان عاجز زائل . أريد أن أذكره بأن كل شىء الى زوال ، والى نهاية ، وأن الانسان بقدر ما يطغى يذل .. أريد أن أعطيه درسا وعظة .

- لا داعى أيها الواعظ ، أنت نفسك كنت أكبر عظة .. والذى لا يتغظ بحياتك وجبروتك ونهايتك ، يكون شيخ الحمقى ، والمأفونين .

- هيا بنا نعود يا صاحبى «إن الى ربك الرجعى » .

● ● ●

